علم التاريخ

تأليف

د. هرنشو

Prof. F.J.C. Hearnshaw

ترجمة

د. عبد الحميد العبادي

الكتاب: علم التاريخ

الكاتب: د. هرنشو

ترجمة: د. عبد الحميد العبادي

الطبعة: ٢٠٢٠

صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٤٤

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

هرنشو

علم التاريخ / د. هرنشو ، ترجمة: د. عبد الحميد العبادي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٢٧ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٧ – ٣٧ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٦٢٤٠ / ٢٠١٩

علم التاريخ

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مُقدمة

ظهر هذا الكتاب أصلًا على هيئة فصل من كتاب: (outline of Modern Knowledge)، الذي اعتزمت لجنتنا أن تنقل إلى العربية طائفة مُختارة من فصوله تنشرها تباعًا. وقد عرضت عليَّ اللجنة ترجمة الفصل المذكور، فترجمته لما وجدت في مباحثه من جدة وطرافة، وهأنذا أُقدم ترجمته العربية إلى طُلاب التاريخ ومُحبيه.

وكاتب الأصل هو الأُستاذ هَرْنشو، الذي لا يزال على قيد الحياة، والذي ولى فيما ولى من المناصب العلمية أُستاذية التاريخ المتوسط بجامعة لندن من عام ١٩١٣ إلى عام ١٩٣٤، والذي له من التأليف ما يشهد له برسوخ القدم وطول الباع في علم التاريخ.

كسر المؤلف بحثه على سبعة فصول تناول فيها الكلام على التاريخ من حيث هو علم، وعلى مقاصده، وطرائقه، وتاريخه من أقدم العصور، وفوائده، وعلاقته بغيره من العلوم. ولما كان قد أشار إشارة عجلى في ختام فصله الثاني إلى التاريخ عند العرب، فقد رأيت إتمامًا لفائدة القارئ العربي أن أتبع ذلك الفصل بفصل من عندي أعقده لعلم التاريخ عند العرب خاصة، فتمت بذلك فصول الكتاب ثمانية، بدلًا من السبعة الأصلية.

ولقد أورد المؤلف في بحثه طائفة كبيرة من أعلام المؤرخين والفلاسفة والعُلماء والأُدباء ممن عسى أن تخفي مكانة بعضهم على الطلاب وأوساط

القُراء، فرأيت إتمامًا للفائدة كذلك أن أُترجم لكل عَلَم من هؤلاء ترجمة وجيزة تقف من ذكرت عليه بعض الوقوف. وبهذه المناسبة أقول إن كل التعليقات الواردة في هذه الترجمة هي من عند المترجم إلا أربعًا أو خمسًا ذيّل كل منها بكلمة (المؤلف) تمييزًا لها عمَّا سواها.

وبعد فإني أرجو أن تكون هذه الرسالة الوجيزة فاتحة لمؤلفات عربية تتناول علم التاريخ ومناهج بحثه تناولًا أوسع، وعلى نحو أتم وأوفى.

عبد الحميد العبادي

جزيرة الروضة

٢ ربيع الثاني عام ١٣٥٦ هـ

١١ يونيه عام ١٩٣٧ م

الفصل الأَول

هل التاريخ علم؟

رأى الأُستاذ بيوري – الحملة عليه من قبل الفلاسفة الطبيعيين ورجال الأدب جميعًا – مُناقشة هذا السؤال تنتهي بِأَنْ التاريخ عِلم شديد القرابة من الأركيولوجيا والجيولوجيا، ولكنه شديد المباينة للفيزيقا والرياضيات – مقاصد علم التاريخ وطرائقه.

قليل مما أثر من أقوال الأساتذة في السنوات الأخيرة أثار من الجدل الكثير ما أثاره إعلان الدكتور ج. ب. بيوري[1] «أَن التاريخ عِلم لا أكثر ولا أقل». وقد كرر الأُستاذ هذا الإِعلان المنطوي على معنى التحدي والدعوة إِلى المبارزة مرتين في عرض محاضرته الافتتاحية التي ألقاها في ٣ يناير من عام ١٩٠٣، وليس من شك في أن لهذا التحدي المعاد حظًا من الوجاهة، فإِنَّا نجد أبطالًا ينتمون إِلى صفين مُتضادين قد أجابوا الدعوة، وبرزوا من الصفين، وصمدوا للمبارزة. نجد الفلاسفة الطبيعيين قد انبروا من ناحية ليثبتوا أن التاريخ دون العلم بكثير، كما نجد رجال الأدب قد انبروا من ناحية أُخرى ليثبتوا أنه فوق العلم بكثير.

[1] J. B. Bury (١٨٦١ – ١٩٢٧) أشهر مُؤرخي إنجلترا في الربع الأول من القرن العشرين. كان أُستاذ التاريخ الحديث بجامعة كمبردج، ومع ذلك فأنفس تآليفه تتصل بتاريخ الإغريق والرومان والبيزنطيين، وقد ساهم في إِصدار مجموعتي كمبردج للتاريخ القديم والمتوسط.

أما الفلاسفة الطبيعيون، وهم قوم توفروا على دراسة العالم الطبيعي فيذهبون في الاحتجاج لرأيهم إلى أن مادة التاريخ تختلف عن مادة العلوم التي يشتغلون بها من حيث كونها غير ثابتة ولا قابلة للتحديد، وأنه ليس من الميسور أن تُعاين وقائع التاريخ مُعاينة مُباشرة، وأن الاختبار والتجربة أمران غير مُمكنين في الدراسة التاريخية، وأن كل واقعة من وقائع التاريخ المسلم بها قائمة بذاتها، وليس في الإمكان تصور ظروف يتكرر فيها وقوعها، وأنه من أجل ذلك لا يتأتى تقسيم الوقائع على وجه الدقة، ولا يُمكن أن نصل في التاريخ إلى شيء من قبيل التعميمات أو القوانين العلمية، وأن مادة التاريخ فوق ذلك كله مُركبة تركيبًا لا نهاية له، وأنه ليس ثمت اتفاق بين المؤرخين على ما هو هام من الوقائع وما ليس بهام، وأن عُنصر المصادفة يهدم كل تقدير سابق، ويحبط كل مُحاولة ترمي إلى تسلف الحوادث، والإخبار بها قبل وقوعها، وأن ما يبدو على كل منا – وذلك فوق كل شيء – من قيام الشخصية، وحرية الإرادة، يجعل كل مجهود يرمي إلى إقامة التاريخ على أُسس علمية مجهودًا ضائعًا بل وداعيًا إلى السخرية والاستهزاء. يقول الأُستاذ و. س. جيفنز(٢): «من السخف أن نُفكر في التاريخ على أنه علم بالمعنى الصحيح».

أما رجال الأدب فيذهبون في حوارهم إلى أن التاريخ سواءً أكان علمًا أم غير علم، فهو لا ريب فن من الفنون، وأن العلم، بالغًا ما بلغ، لا يعطينا من التاريخ سوى العظام المعروقة اليابسة، وأنه لا مندوحة عن خيال

(٢) **W.S.Jevons** عالم إنجليزي (١٨٣٥ – ١٨٨٢) مُتخصص في الاقتصاد والمنطق. أشهر مُؤلفاته «أُصول العلم» **Principles of science**.

الشاعر إذا أُريد نشر تلك العظام وبعث الحياة فيها، فإذا ما أحياها الخيال، فهي بحاجة إلى مُنتهى براعة الكاتب التحرير حتى تبرز في الثوب اللائق بها، وتعرض بحيث تصبح قوة فعالة في عالمنا هذا. وهو يقولون فوق ذلك، إن ما يتصف به رجل العلم من حياد جاف لا محل له، ولا يُمكن أن يُطاق، في مقام المؤرخ المعني بشؤون النفوس الحساسة. يقول الأُستاذ ج. م. ترفليان[3]: «من كان فاقد الانفعال والحماسة، فقلما يُؤمن بانفعالات غيره، ثم هو لا يُمكنه أن يدرك هذه الانفعالات أبدًا».

ثم يتسع نطاق المعركة، ويتفاقم الخطب، فإن رجال العِلم ورجال الأدب لم تكفهم حملتهم المزدوجة على الأُستاذ بيوري حتى أخذ كل فريق منهما يحمل على الآخر، وقد آل الأمر بهم أخيرًا إلى أن كونوا شبه مثلث حال كل فريقين منه كحال لاعبي الشطرنج عندما يصبح كلاهما مُهددًا بهزيمة الشاه إذا أقدم على اللعب به. ثم انجلت الغمرة عن حقيقة واحدة برزت ظاهرة ماثلة للعيان وهي أن الخصومة — إلى حد بعيد — خصومة لفظية، وأنه لو مهد للموضوع بتعريف الألفاظ وتحديد معانيها فربما كفى الناس مُعظم عنائها؛ إن لفظي «عِلم» و«تاريخ» مُبهمان غامضان، فإذا لم يعن بتعريفهما، فمن الممكن، بل من المحتمل، أن من يستعملونهما في الجدال يستخدمونهما في معنيين مُختلفين مُستقلين استقلالًا يتعذر معه أن

(٣) G.M. Trevelyan وُلِدَ عام ١٨٧٦، وهو الآن أُستاذ التاريخ الحديث بكمبردج. وله مُؤلفات قيمة منها «تاريخ إنجلترا».

ينتهوا إلى نتيجة ما. يقول اللورد أكتن[٤]: «العلم اجتماع طائفة كبيرة من الوقائع المتشابهة بحيث تنشأ عن اجتماعها وحدة عامة على هيئة مبدإٍ أو قانون يُمكننا على وجه اليقين من التنبؤ بحدوث وقائع مُشابهة للوقائع المذكورة في ظروف مُعينة». أما وقد عرَّف اللورد أكتن العلم بهذا التعريف، فلا عجب أن يجيب بالنفي الصريح عن سؤالنا «هل يُمكن أن يكون التاريخ علمًا؟» على أن العلم، وإن كان من غير شك دائم البحث وراء التعميمات، دائم التلمس للقوانين، دائم الحرص على أن يوهب هبة التنبؤ، لا ينبغي بحال أن يُجرد من اسمه وصفته إذا هو عجز عن بلوغ الأغراض التي يطمح إليها ويطمع فيها. إننا يستحيل علينا (ولو بالمعنى البرلماني للفظ مستحيل) أن نصل في الميتيورولوجيا إلى تعميمات خاصة بالجو (وخاصة جو إنجلترا)؛ لأن القوانين التي بمقتضاها يقع التعاقب بين ضوء الشمس وهبوب العاصفة لم تُستكشف بعد، ولأن تنبؤات الخبراء عن أحوال الجو تخطئ من حيث النسب الصحيحة خطأ يتناسب مع حظها من الدقة. ومع ذلك كله لا ينكر أحد أن الميتيورولوجيا علم من العلوم. ذلك بِأَن العلم يُمكن أن يُعرف تعريفًا جامعًا، مانعًا، بسيطًا، فيُقال «إنه المعرفة المنظمة، المبوبة، المقننة»، ويكفي في إسناد صفة العلم إلى أي موضوع أن يمضي الإنسان في دراسته مع صرف شيء من عنايته إلى توخي الحقيقة، وأن يكون فهمًا ذكيًا في البحث عن كل ما يتصل به من الحقائق، وأن

(٤) **Lord Acton** (١٨٣٤ – ١٩٠٢) وُلِدَ ونشأ وتعلم في القارة الأُوروبية، ثم نُصب أُستاذًا للتاريخ الحديث بجامعة كمبردج في أواخر حياته. وكان موفور الحظ من نُبل النفس وسمو المبادئ، وكان له فضل كبير في تقدم علم التاريخ بإنجلترا، وهو الذي وضع الخطة التي اتبعت في إصدار مجموعة كمبردج للتاريخ الحديث.

يُؤسس على حكم ناقد اطرح منه هوى النفس وكل افتراض سابق، وأن يكون قد رد بقدر ما يسمح مضمونه إلى البسائط الثلاث: التصنيف، والتبويب، والتقنين[٥]. فإذا تقرر ذلك فليس ثمت مسوغ لأن نتعجل إسقاط التاريخ أو أي موضوع آخر من عداد العلوم. فإن كان لابُد من أن نسقط منه عند العمل موضوعات بعينها، فذلك لأَنها متى عرضت على معايير العلم التي ذكرناها آنفًا، وهي توخي الحقيقة، وتجميع الوقائع والحكم الناقد، واطراح هوى النفس، فإنها تصبح لا شيء. فهل التاريخ من هذا القبيل يا تُرى؟ كلا! إن التاريخ، بما للطبيعة البشرية من خصائص ثابتة، وبما للإنسان من سلطان دائم على البيئة الجغرافية، يقوم على أُصول تضارع قيمتها على أقل تقدير، ذرات الكيماوي الغامضة وألكترونات الفيزيقي الرواغة. إن التاريخ يبحث في الفعل ورد الفعل الصادرين عن إنسان غير مُتغير أَصلًا، وعن بيئة غير مُتغيرة أصلًا. ذلك هو التاريخ، فما مضمونه؟ وعَلام يحتوي؟

يضطرنا هذا السؤال إلى البحث عن مفهوم[٦] لفظ التاريخ؛ والاستقراء البسيط يرينا أن هذا اللفظ يقع على بضعة معانٍ مُختلفة فيما بينها اختلافًا بعيدًا، فإذا ما صرفنا النظر عمَّا يتناوله اللفظ من معانٍ دقاق

---

(٥) يقول الأُستاذ هـ. هكسلي **T.H Huxley**. «إنني أقصد بالعلم كل معرفة تقوم على الدليل والاستنباط» ويقول الدكتور الكسندر هل **Alex Hill**. «كل معرفة معقولة فهي علم». و«إن العلم معرفة روعيت فيها الأوضاع الصحيحة». ويرى الأُستاذ كارل بيرسن **Karl Person** «إن وظيفة العلم تنحصر في تقسيم الوقائع، ومعرفة تتابعها، وأهميتها النسبية». هذا في حين أن الأُستاذ ف. ج تجارت **F.J. Teggart** يعرف العلم بأَنه مُجرد «البحث المنظم للتصرفات التي تبدو في الظواهر الطبيعية».

(٦) **Connotation** وهو من مُصطلحات المناطقة.

لطاف فإنا نجده يُطلق على معانٍ ثلاثة نقصر عليها بحثنا: (١) فلفظ التاريخ يُطلق من باب التجوز في الاستعمال على «مجرى الحوادث الفعلي»، نتحدث عن «موجدي التاريخ» ونحن لا نعني بالطبع واضعي الكُتب التاريخية، ولكن نعني الرجال الذين غيروا بأعمالهم مجرى شؤون العالم كالإسكندر، وقيصر، نابليون[٧]؛ ونتحدث عن «سلطان التاريخ»، ولا نريد قدرة الكُتب المدرسية على التأثير، ولكن نريد السلطان الذي يكون للظروف أثناء عملية الزمن. لا نتوسع في الكلام على هذا الاستعمال للفظ (التاريخ)، فهو استعمال خطأ ولا بُد من التجوز فيه؛ لأنه لا يُوجد مع الأسف بالمرة لفظ آخر يدل على هذه العملية الزمانية لشؤون العالم.

(٢) والمعنى المهم الثاني للفظ (التاريخ) هو «التدوين القصصي لمجرى شؤون العالم كله أو بعضه»، واستعمال (التاريخ) في الدلالة على هذا المعنى استعمال مستقيم لا غبار عليه، وهو أهم استعمالاته. فلدينا تواريخ إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا، وتواريخ الفن والعلم والأدب، ولدينا تواريخ أي شيء أو كل شيء تطور على مر الزمن وخلف وراءه آثار تطوره؛ ومع أن هذا الاستعمال مُستقيم وشائع، فإنه قد يفضي إلى شيء من اللبس نلحظه وراء كل مناقشة موضوعها: هل التاريخ علم أو فن؟ ذلك بأَننا إذا قلنا إن التاريخ قصة فهو أدخل في باب الإنشاء الأَدبي. والإنشاء الأدبي فن من غير نزاع، لكن صناعة الإنشاء الأدبي عندما تنصب على التاريخ يكون

[٧] ما كان أحرى المؤلف أن يضع النبي مُحمدًا في طليعة هؤلاء الرجال.

أبلغ في الدلالة عليها لفظ آخر هو (التأريخ)؛ أي كتابة التاريخ، فإذا ما استعملنا لها هذا اللفظ فقد زال اللبس وانتهى الإشكال؛ لأن كتابة التاريخ فن بطبيعة الحال[٨]. وإذا فقد تمهد الطريق إلى بحث المفهوم الثالث والأدق للفظ (التاريخ). إن هذا اللفظ في أصل معناه واشتقاقه الدقيق يفيد «البحث» أو «التعلم بواسطة البحث» أو «المعرفة التي يتوصل إليها من طريق البحث»[٩]، فالمعنى المستتر هنا هو الاستقصاء، والبحث، وطلب الحقيقة. وبهذا المعنى يكون التاريخ علمًا، وإلا فليس بشيء على الإطلاق[١٠].

وإذا كان التاريخ على معنى البحث، إما أن يكون علمًا أو لا يكون شيئًا على الإطلاق، فمن أي أنواع العلوم هو؟ ما الذي يبحث فيه؟ ما موضوعه؟ ما مقاصده؟ ما طرائقه؟ سنجيب عن بعض هذه الأسئلة بوجه أتم فيما يرد من هذه الرسالة. سنرى عندما نستعرض تاريخ «التأريخ» أن من هذه الأسئلة ما أجيب عنه في عصور مُختلفة أجوبة صريحة، قاطعة، مُتباينة فيما بينها أشد التباين. أما الآن فنكتفي بأَن ندلي بالملاحظات الوجيزة الآتية:

---

[٨] استعملنا كلمة (تاريخ) بتسهيل الهمزة لكلمة **History**، وكلمة (تأريخ) بإثبات الهمزة لكلمة **Historiography** والأولى تفيد عند كتاب العرب معنى العلم من تحقيق وضبط كقول سفيان الثوري: «لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ»، وأما الثانية فتفيد عندهم مطلق التعريف بالوقت، فهو أسلوب للأداء؛ أي فن.

[٩] يشير المؤلف هنا إلى أصل معنى اللفظ في اليونانية.

[١٠] يُمكن تقريب كلام المؤلف في هذه الفقرة من فهم القارئ يتصور التاريخ نهرًا أزليًا أبديًا، فمادة هذا النهر هي المراد من المعنى الأول ووصفها كلها أو بعضها هو المراد بالمعنى الثاني، وتحليلها وتعرف ماهيتها هو المراد بالمعنى الثالث.

أولًا: من أي أنواع العلوم يُعتبر التاريخ؟ إنه ليس كالفلك علم مُعاينة مُباشرة، ولا كالكيمياء علم تجربة واختبار، ولكنه علم نقد وتحقيق. أقرب العلم الطبيعية شبهًا به الجيولوجيا. فكما أن الجيولوجي يدرس الأرض كما هي الآن ليعرف، إذا أمكنه ذلك، كيف صارت إلى حالتها الحاضرة، فكذلك المؤرخ يدرس الآثار المتخلفة عن الماضي ليفسر بواسطتها وبقدر إمكانه ظاهرة الحاضر. وكما أن الجيولوجي يجد مادته الأساسية فيما سلم في نفايات الطبيعة من أدلة قليلة تثبت التطورات الجيولوجية القديمة، فكذلك المؤرخ يعتمد في معرفة الوقائع الماضية على آثار مادية، أو سجلات، أو تقاليد، سلمت مصادفة واتفاقًا من عوادي الزمن التي لا تبقي ولا تذر. هذه الآثار، والسجلات، والتقاليد، هي الحقائق المحسومة الحاضرة التي ينصب عليها عمل المؤرخ، هي مادة علمه. وهي ليست قيمة وهامة لذاتها، ولكن لمجرد دلالتها على الوقائع الماضية. ثم هي لا تدل على الوقائع الماضية مُباشرة، ولكن بواسطة الضوء الذي يلقيه عليها فكر الباحث. فإن المؤرخ الذي حذف من سجلاته جهد طاقته كل أسباب الخطأ، واستخلص ما تبقى حقيقة نقية خالصة، لم يتم بحثه بعد. ذلك بأَن الوقائع والآثار مغمورة بمحيط من الآراء، والإرادات، والانفعالات، التي كانت تلك الوقائع والآثار مُعبرة عنها أو أثرًا لها. هذه الآراء والإرادات والانفعالات حقائق نهائية ثابتة للروح البشرى وخارجة بالمرة عن مُتناول المعاينة المباشرة، حتى بالإضافة إلى من شهدوا الوقائع أو أُقيمت بينهم الآثار. والمؤرخ إنما يبحث في آخر الأمر عن هذه العوامل الخفية التي تبعث

الناس على العمل، يبحث عن هذه الحقائق الروحية الخالدة على وجه الزمان.

ثانيًا: ما الذي يبحث فيه التاريخ؟ جملة القول أنه يبحث في الموجود من مُخلفات الماضي وسجلاته التي قد تعين على جلاء الحاضر وتوضيحه.

ثالثًا: ما موضوع التاريخ؟ والجواب أن التاريخ من حيث معناه العلمي لا موضوع له على الإطلاق هو مجرد طريقة بحث. ولكي يتعين له موضوع ينبغي أن نقرن اسمه بوصف من الأوصاف، وعلى ذلك تكون الشؤون الماضية للدول موضوع التاريخ السياسي، والشؤون الماضية للكنيسة موضوع التاريخ الكنسي، وهلم جرًا. وما من وصف توصف به أحوال الإنسان إلا ويُمكن أن يُوصف به التاريخ. وبعبارة أُخرى إن نطاق التاريخ يتسع لجميع الصوالح البشرية، فكل ما يقع من الإنسان أو يقع عليه، وكل ما يبنيه أو يهدمه، داخل في حدود البحث التاريخي.

لذلك يحق لربة التاريخ أن تقول مع تيرنس[11]: «إني لا يندّ عني شأن من شؤون الإنسان».

رابعًا: ما مقصد البحث التاريخي؟ لقد تقدم جواب هذا السؤال.

---

[11] Terence شاعر كوميدي لاتيني قديم (١٩٢ – ١٥٩ ق.م) يمتاز بصدق التصوير ورشاقة الأُسلوب.

فالقصد من البحث التاريخي جلاء الحاضر وتوضيحه. إن جميع المواد التي يبحث فيها التاريخ هي في الواقع حاضرة موجودة، ولا يدخل في متناول بحثه شيء مضى وانقطع وجوده. وفوق ذلك ينبغي أن يسير الباحث في بحثه على هدى الأفكار، والآراء، والمصالح السائدة وقت البحث.

ذلك بأَن المؤرخ ليس في مقدوره أن ينتزع نفسه من المحيط الذي يعيش فيه؛ وليس له الحق أن يُحاول ذلك. إن قصده كمؤرخ هو بالدقة أن يصل إلى فهم محيطه وفهم نفسه. وجملة القول أن التاريخ كله كما يقول الأُستاذ بندتوكروتشي[١٢] عبارة عن تاريخ مُعاصر، وأن كل من يحمل بحق لقب «مُؤرخ» هو فيلسوف، أراد ذلك أو لم يرد. نقول هذا القول ونحن نعني ما نقول، لا لمجرد التلاعب بالألفاظ.

وأخيرًا، ما طرائق التاريخ من حيث هو علم؟ هذا سؤال يعتبر بطبيعة الحال أكبر من أن يُجاب عنه جوابًا وافيًا في عجالة كالتي نحن بصددها الآن. لذلك نحيل من يطمع في جواب مُفصل عنه إلى هذه الكُتب وأمثالها. «خطط التاريخ» لدرويسن[١٣] (١٨٥٨)، «طرائق الدراسة التاريخية»

---

(١٢) **Benedetto Croce** كاتب إيطالي كبير لا يزال على قيد الحياة كتب في التاريخ والأدب والفلسفة، ومن أهم مؤلفاته «نظرية وتاريخ التأريخ» **Teoria e storia della storiografia**.

(١٣) **J.S. Droysen** مؤرخ وأستاذ ألماني (١٨٠٨ – ١٨٨٤) يمتاز في كتاباته بقوة الشخصية وباستقصاء القوى المحركة الخطيرة في التاريخ. ومن أشهر كتبه الكتاب المذكور في المتن **Grundriss der Historik**.

لفريمان[١٤] (١٨٨٦)، «كتاب في الطريقة التاريخية» لبرنهايم[١٥] (١٨٨٩)، «المدخل إلى الدراسات التاريخية» لمؤلفيه لَنجلو[١٦] وسنيوبوس[١٧] (١٨٩٨)، «في نظرية التاريخ وطريقته» لماير[١٨] (١٩٠٢)، «منطق التاريخ» لمؤلفه كَرمْب[١٩] (١٩١٩). ونكتفي في هذا المقام بإيراد النقط الأساسية التي يقول بها واحد أو أكثر من الكتاب المذكورين.

فالتاريخ من حيث هو علم يختلف أصلًا عن العلوم الفيزيقية؛ هو كما تقدم القول ليس علم مُعاينة أو تجربة، ولكن علم نقد وتحقيق. ومواده كما يتحدث درويسن «ليست الأشياء التي مضت وانقطع وجودها ولكن

---

(١٤) **E. A, Freeman** مؤرخ وأستاذ إنجليزي (١٨٢٣ – ١٨٩٢) = ومن أشهر كتبه الكتاب المذكور في المتن **Methods of Historical Study** وقد رقى دراسة التاريخ في إنجلترا من وجهين أساسيين: الاستمساك بفكرة الوحدة العامة للتاريخ، وبيان أهمية المصادر الأصلية.

(١٥) **E.Bernheim** أستاذ ومؤرخ ألماني لا يزال على قيد الحياة، من أهم كتبه كتابه المذكور في المتن **Lehrbuch der Historischen Methode**.

(١٦) **C.Y.Langlois** مؤرخ وأستاذ فرنسي (١٨٦٣ – ١٩٢٩). وضع أكثر من كتاب في مراجع التاريخ الفرنسي والتاريخ العام. واشترك مع سنيوبوس في وضع الكتاب المذكور بالمتن **Introduction aux Etudes Historipues**.

(١٧) **C. Seignobos** أستاذ ومؤرخ فرنسي شهير لا يزال عائشًا له سوى الكتاب المذكور في المتن «نشوء الشعب الفرنسي».

(١٨) **E. Meyer** مؤرخ وأُستاذ ألماني مُتخصص في التاريخ القديم لا يزال على قيد الحياة. وهو الذي أثبت ما للعادات الشعبية والآثار والعملة من أهمية عظيمة في فهم التاريخ القديم، ومن أشهر كتبه كتابه المذكور في المتن **Zur Theorie und Methodik der. Geschichte**.

(١٩) **C. S. Crump** كاتب إنجليزي لا يزال على قيد الحياة. ألَّف الكتاب المذكور في المتن **The Logic of History**.

الأشياء التي لا تزال موجودة، سواء أكانت روايات عمَّا وقع، أم بقايا أشياء وجدت، أم نتائج أحداث حدثت» ومراحل بحثه الأساسية ثلاث:

المرحلة الأُولى: مرحلة التجميع Die Heuristik؛ أي تجميع المواد المعتبرة وقائع صحيحة. ولما كانت الوقائع لا تحصى كثرة، وكانت كثرتها العُظمى ثانوية القيمة — وإن لم يكن منها شيء عديم القيمة بالمرة — فلا بُد من ضابط يرجع إليه في تمييز المهم من غير المهم. فما الضابط المعتبر عند المؤرخين؟ لعله لم يجتمع اثنان على رأي في هذه المسألة الخلافية. وبعبارة أُخرى، لو عهد إلى مؤرخين أن يصفا حركة من الحركات، أو حادثًا من الحوادث، فمن الراجح ألا يتفقا في القول بأهمية نواح منه بعينها. لقد كان قدماء المؤرخين يستهويهم من شؤون البشر كل ما كان شاذًا، أو دراسيًّا، أو حماسيًّا. وقد صوروا في أروع أساليبهم الأدبية البِدْع، والفاجع، والجليل، من أعمال الناس. أما المؤرخ العلمي الحديث فأميل أن يختار مما بين يديه من مواد غير متناهية مجرد الحقائق التي يرى أنها تعينه في بيان تطور المجتمع الإنساني إلى حالته الحاضرة. وتعتبر الوثائق الخطية أعظم المصادر التي تُساعد على بلوغ هذا الغرض. نعم إن هُناك مصادر أخرى على شكل عُدَد، ومبانٍ وحصون، وصور، ونقوش، بل وعلى شكل رواية شفوية أيضًا، إلا أنه قد بلغ من فضل الوثائق الخطية على غيرها من المصادر أن قال لنجلوا وسنيوبوس: «لا تاريخ بغير وثائق». ثم إن تجميع المواد من الوثائق يقتضي ملكة فنية عالية، ودراية علمية فائقة، بفقه اللغة، وقراءة النقوش، والدبلوماسية، مما لا حاجة بنا الآن إلى الإفاضة في تفاصيله.

فإذا تم تجميع المواد الأولية تبتدئ المرحلة الثانية من مراحل البحث التاريخي وهي مرحلة النقد Die Kritik، فيجب أن يفحص المؤرخ عبارات الوثائق الخطية وأدلة المخلفات الأُخرى، ليتثبت من صحتها وقابليتها لتصديقه. ينبغي أن يُناقش الأَشياء المذكورة، وبخاصة الوثائق الخطية، من حيث صحة أصلها، ودقة روايتها، وكون عبارتها في ذاتها قابلة للتصديق وكذلك من حيث المستوى العقلي والخلقي لكتابتها.

أما المرحلة الثالثة والأخيرة السابقة على كتابة القصة التاريخية[٢٠] فهي مرحلة التأويل Die Hermeneutic، وهي أشق المراجل الثلاث مطلبًا وأصعبها مرامًا. فيها تتجلى عبقرية أمثال ليوبولد فون رنكي[٢١] وفوستل ده كولنج[٢٢] وف. و. ميتلند[٢٣]. وهي مضطرب واسع للخيال العلمي القادر على السبح في أعلى الأجواء، دون أن يخرج من أضيق

---

[٢٠] هي المرحلة الأخيرة من مراحل البحث التاريخي وهي التي ذكر المؤلف في أول الفصل رواية عن رجال الأدب أنها تحتاج إلى الخيال العاطف ومنتهى براعة الكاتب التحرير، وبذلك تكون مراحل البحث التاريخي الكامل أربعًا:

(١) مرحلة التجميع. (٢) مرحلة النقد. (٣) مرحلة التأويل. (٤) مرحلة صياغة القصة التاريخية.

[٢١] **Leopold von Ranke** (١٧٩٥ – ١٨٨٦) مُؤرخ وأُستاذ ألماني كبير: توفر على دراسة التاريخ الأُوربي الحديث. وعرف بالرجوع إلى المصادر الأُولى وبالاستقلال في الرأي. وقد أَنشأَ جيلًا من المؤرخين نسج على منواله. ومن أشهر كُتبه «تاريخ الباباوات في القرنين السادس عشر والسابع عشر».

[٢٢] **Fustel de Coulanges** (١٨٣٠ – ١٨٨٩) أُستاذ مُؤرخ فرنسي مُتخصص في تاريخ اليونان والرومان وتاريخ فرنسا القديم. وضع كتاب «المدينة القديمة» **La Cite Antique** وهو من خيرة الكُتب الفرنسية في القرن التاسع عشر، بين فيه أثر الدين في نشوء اليونان والرومان.

[٢٣] **F. w. Maitland** (١٨٥٠ – ١٩٠٦) فقيه ومُؤرخ إِنجليزي، كتب بالاشتراك مع السير ف. بولوك «تاريخ القانون الإنجليزي» وتمتاز كتاباته بقوة الأُسلوب وحيويته وبالقدرة على تصوير الماضي بواسطة المصادر الأصلية.

حدود الحقيقة. ذلك الخيال الذي به استطاع العالم الزؤلوجي كوفيبه[٢٤] أن يعيد تركيب أجسام وحوش بادت من عصور سابقة على التاريخ، وذلك بواسطة قليل مُبعثر من عظامها سلم من البلي مُصادفة واتفاقًا. إن قلة الوثائق والآثار المتخلفة عن كثير من عصور التاريخ وخاصة صدر العصور الوسيطة في أوربا النصرانية، وكثرة الجهل، وسرعة التصديق، وافتراء الكذب، التي يوصف بها من كتبوا عن هذه العصور الوسيطة والاختلاف الكلي بين أساليب التفكير وطُرق المعيشة فيها وبين نظائرها في العصرين القديم والحديث، كل ذلك يجعل عبء فهمها وتوضيحها لا ينهض به إلا من أوتى أسمى مواهب الخيال العاطف؛ أي مواهب العقل والعاطفة معًا.

حسبنا ما تقدم في بيان علم التاريخ من حيث تصور العُلماء له في الوقت الحاضر، وسنأخذ فيما يلي في بيان حالته الآن في بريطانيا العُظمى والقارة الأُوربية، وأمريكا. وسنبحث فوق ذلك عن علاقته كما يدرس الآن بالحياة والفكر في زماننا هذا. ولكن ينبغي قبل ذلك أن نرجع مع الزمن هنيهة نُوجز فيها تتبع الخطوات التي خطاها علم التاريخ، وفن التأريخ، حتى وصلا إلى ما هما عليه الآن.

---

(٢٤) **Georga Cuvier** عالم فرنسي (١٧٦٩ – ١٨٣٢) مُتخصص في التاريخ الطبيعي، وضع مُؤلفًا عظيمًا في «مملكة الحيوان مُوزعة على حسب تكوينها» تناول فيه البحث في تركيب الحيوانات الموجودة والحفرية البائدة.

الفصل الثاني

إلمامه بالتاريخ والتأريخ في العصرين القديم والوسيط

أقدم التواريخ والمؤرخين عند المشارقة – مؤرخو اليونان – مؤرخو الرومان – مؤرخو العصور الوسطى في أُوربا – مؤرخو العرب الذين يحتمل أن لهم أثرًا في تقدم التاريخ في أوربا في أواخر العصور الوسطى.

إذا كان تصور التاريخ على أنه علم – أيًا كان معنى العلم – تصورًا حديثًا قريب العهد منا، فإن التاريخ من حيث هو سجل العصور الغابرة وديوانها الحافظ لأخبارها، قديم قدم اهتداء الإنسان إلى صناعة الكتابة. بل لقد كان الناس قبل ذلك العهد البعيد يتذاكرون قصة الأزمنة القديمة ويتناقلونها ابنًا عن أب على شكل روايات شفوية، وكان الغرض الذي من أجله تنحدر تلك القصة من جيل إلى جيل رواية شفوية أَو مكتوبة، هو من غير شك نفس الغرض الذي ندرس من أجله اليوم التاريخ ونكتبه؛ أي من أجل توضيح الحاضر وإلهامه سبيل الرشاد. إن أقدم ما وصلنا من التواريخ، أَعني تواريخ المصريين، والبابليين، والآشوريين، والعبرانيين، يتضمن فيما يتضمن من ذكر الخوارق المحضة (كظهور مُذنبات، ونتاج بقر ثنائية الرؤوس) حكايات تحكي عن العناية الإلهية، وأقاصيص تقص عن أبطال الشعوب القديمة. ثم جاء القرن الثالث قبل الميلاد فشهد في وقت

واحـد تقريبًا ظهور حوليات مانيثون[٢٥] المصري، وتاريخ بابل لبيروسوس[٢٦]، وأسفار تآريخ ملوك إسرائيل ويهوذا. ومن قبل ذلك؛ أي حوالي ٥٧٥ ق.م كان قد تم تدوين السفرين العبرانيين: سفر الملوك الأول، وسفر الملوك الثاني. ومن قبل هذه كلها؛ أي حوالي ٩٠٠ ق. م ظهرت الأجزاء اليَهْوية[٢٧] من العهد القديم، وهي الأجزاء المشتملة على أسفار موسى الخمسة، وأسفار يشوع وصموئيل، وهذه أقدم ما في آداب العالم الحاضرة من الكُتب التاريخية. وغني عن البيان أن الغرض من هذه الكُتب كان تعليميًا عمليًا أي مُتصلًا بالشئون العامة، وقلما كان الكُتَّاب يعنون ببحث مصادر ما يكتبون، أو يحفلون بصحة ما يقررون، بل كان همهم النُصح للناس بالتخلق بمكارم الأخلاق، وإبادة الوثنية، والدفاع عن عدالة الإله نحو الإنسان.

كانت هذه النزعة الدنيوية عند المشارقة، يُقابلها عند الإغريق مقابلة عجيبة ما عرف عن ذلك الشعب من نزعة دنيوية وميل إلى تعقل الأشياء. شرع ذلك الشعب العجيب ابتداء من حوالي ٢٠٠٠ ق.م. يهبط غازيًا ومتطفلًا أقاليم تأصلت فيها مدنيات البحير الأبيض المتوسط: مدنيات إقريطش، ومصر، وآسيا الصغرى. وكانت مدنية إقريطش، أو المدنية

---

[٢٥] **Manetho** كاهن مصري قديم عاش في بلدة سبنيتوس **Sebennytus** (سمنود الحاضرة) على عهد بطليموس الأول وبطليموس الثاني، وضع باليونانية تاريخًا لقدماء المصريين استمده من مصادر مصرية قديمة، وقد ضاع مؤلفه ولم تبق منه إلا نبذ يسيرة انتفع بها عُلماء العاديات المصرية انتفاعًا كبيرًا.

[٢٦] **Berossus** كاهن بابلي قديم، عاش في زمن ملك الشام أنطيوخوس الثاني (حوالي ٢٥٠ ق.م) كتب باليونانية تاريخًا لبابل استمده من مصادر بابلية قديمة، وقد ضاع كتابه إلا نتفًا يسيرة مضمنة في كُتب يوسفيوس وأوزبيوس، وما ذكره عن الطوفان وجد مُطابقًا لما جاء عنه في النقوش المسمارية.

[٢٧] نسبة إلى يَهوَه، اسم إله بني إسرائيل.

المينوية[٢٨] أول مدنية اتصلوا بها وأكثروا الأخذ عنها. ولما كانت أُصول أساطير تلك المدنية تُخالف أُصول أساطيرهم، فقد نشأ عن تصادمهما في العقل الإغريقي نوع من الشك أفاد الإِغريق كثيرًا؛ إذ أصبحوا ينظرون إلى الأشياء على حقيقتها، غير مشوبة بشائبة الخرافة، وأقبلوا يتعرفون العلل الطبيعية لظواهر كانت حتى وقتهم تُضاف إلى ما لا يحصى من أهواء آلهة لا تُحصى. والحق أنه عندما قام تاليس الملطي[٢٩] فتنبأ بكسوف الشمس في عام ٥٨٥ ق.م وتحقق تنبؤه، كان ذلك إيذانًا بمفتتح عصر جديد في تاريخ تحرر العقل البشري. لقد تملك الإِغريق من ذلك اليوم شغف بالبحث أو بما يُسمونه باليونانية (إيستوريا) أي تاريخًا. وكانت شؤون الجنس البشري أول موضوع انصب عليه ظماؤهم الذي لا يروى إلى الاستطلاع، فطوفوا في الآفاق، ودرسوا مدنيات الشرق القديمة، وجاهليات الغرب الحديثة، واستثاروا أسرار الماضي، ولم يقر لهم قرار دون الوصول إلى تفسير معقول للأشياء. أول من نعرف من مؤرخيهم هكتيوس[٣٠]، وكان من مواطني تاليس المتقدم الذكر، وُلِدَ في الملطية في عام ٥٤٦ ق. م أو حواليه، وهو نفس العام الذي توفي فيه ذلك الفيلسوف الكبير. كتب هكتيوس في أصل الشعب الإغريقي، وفي تجوالاته الأولى. ومع أنه كان كثير الخطأ، فإن روحه كان سليمًا، وعقله علميًّا، وكان

---

[٢٨] نسبة إلى مينوا Minoa مدينة واقعة على الشاطئ الشمالي لجيرة إقريطش.

[٢٩] Thales of Miletus (٦٤٠ – ٥٤٦ ق.م)؛ فيلسوف فيثزيقي يوناني قديم عاش في بلدة ميليتوس (أو الملطية كما يسميها الشهر ستاني) الواقعة على ساحل آسيا الصغرى الغربي، زار مصر وتعلم من كهنتها علم الهندسة، وتنسب إليه مبتكرات هندسية مُتعددة، وكان معدودًا من حُكماء اليونان السبعة.

[٣٠] Hecataeus.

يقول: «لست أثبت هنا إلا الحكاية التي أعتقد صحتها، فإن أساطير اليونان كثيرة، وهي عندي حديث خرافة». وجاء من بعد هكتيوس مؤرخ كبير هو هيرودوت[٣١] الهليكرناسي[٣٢] (من حوالي ٤٨٤ – ٤٢٥ ق.م) ويُلقب أحيانًا بأبي التاريخ. وقد اتفق له موضوع دقيق هو موضوع النزاع بين الإغريق والفرس، أو بين أُوربا وآسيا، أو بين الغرب والشرق. وكان هيرودوت كفأً للفرصة التي أُتيحت له، إذ أدرك أن النزاع الذي فصلت فيه معارك سميس، وبلاتي، وميكالي (٤٨٠ – ٤٧٩ ق.م) إنما هو نزاع موت أو حياة بين مدنيتين مُتعارضتين، وطريقتين من طرائق الحياة مُختلفتين كل الاختلاف. ومن ثم أتحفنا هيرودوت في كتابه العظيم بصور لهاتين الحضارتين المصطرعتين تجل عن التقويم، وبقصة فذة تناولت سلسلة من الحوادث توقف عليها مصير الجنس الإنساني. ثم يأتي من بعد هيرودوت تيوسيديد[٣٣] (حوالي ٤٧١ – ٤٠١ ق.م) ثالث مشاهير مُؤرخي الإغريق، وقد اتفق له هو أيضًا موضوع خطير طريف، وإن كان أضيق نطاقًا من حرب الفرس واليونان، ذلك موضوع حرب البلوبونيز،وهي حرب شبت نارها بين المدينتين الشقيقتين المتناحرتين، آتينا وإسبرطة، وكانت درامية الأطوار متقلبة الأحوال. كان تيوسيديد إذا قورن بهيرودوت، أكثر عناية بتحقيق ما يروى، وأقل ميلًا إلى الاستطراد من موضوع قصته إلى تفصيلات لا علاقة لها به، وإن تكن في نفسها طريفة أخاذة، وأقدر من

---

(٣١) Herodotus.

(٣٢) نسبة إلى مدينة هليكرناسوس Halicarnassus الواقعة في الجنوب الغربي من آسيا الصُغرى.

(٣٣) Thucydides.

غير نزاع على صوغ القصة التاريخية. غير أنه من ناحية أُخرى ضَيَّق أفق ما عني به من موضوعات التاريخ، فأفرط في حمل التاريخ على جانب الحرب والسياسة، وعجز عن أن ينفذ إلى أدق أسرار الحوادث، وبالغ في تقدير نفوذ الأفراد أمثال تمستوكليس(٣٤) ومن على شاكلته، ورأى الأمور بوجه عام في غير وضعها الصحيح. وفوق ذلك كله، فإنه كتب في التاريخ لغرض خطابي، أو كما يصفه كروتشي «تجريبي»؛ بمعنى أنه لم ينظر إلى التاريخ على أنه علم وظيفته جلاء الحاضر وتوضيحه، بمقدار ما نظر إليه على أنه علم وظيفته رسم طريق المستقبل. وكان يقول بدورة الشؤون البشرية(٣٥)، وبأَن «العلم الدقيق بحوادث الماضي قد يفيد؛ لأن من المحتمل أن يحدث في المستقبل شيء من قبيل ما حدث في الماضي».

يأتي من بعد هؤلاء بوليبيوس(٣٦) (حوالي ٢٠٤ – ١٢٢ ق.م)، وهو مُؤرخ إغريقي عاش في رومية وأَرَّخ الجمهورية الرومانية. ذهب إلى رأي تيوسيديد في إمكان دورة الشئون السياسية لِلإنسان، غير أنه كان أقوى منه نزعة علمية؛ بمعنى أنه كان أهدأ تفكيرًا، وأعدل حكمًا، وأقل ميلًا إلى الأُسلوب الخطابي، وأشد عناية بتفسير الحاضر منه بتوجيه المستقبل.

وكان أكبر همه أن يشرح في ضوء التاريخ كيف استطاعت المدينة الرومانية المستقلة أن تصل إلى حال من الثبات والقوة لا تُقارن بها حال

(٣٤) Themistocles (حوالي ٥٢٥ – ٤٦٠ ق.م) قائد آثيني كبير، قهر الفرس في واقعة سلاميس، وكان زعيم الحزب الديمقراطي في أتينا القديمة، تنكر له قومه في آخر أمره ونفوه فلجأ إلى الفرس ومات في أرضهم في عام ٤٦٠ ق.م.

(٣٥) أو بإعادة التاريخ نفسه كما يُقال أحيانًا.

(٣٦) Polybius.

المدن المستقلة في وطنه الإغريقي. قام بذلك كله في سفر غزير المادة، ضمنه قصة الفتوح الرومانية وتحليل النظام الروماني السياسي، وهو كتاب يُعد نموذجًا للحكم المبرأ عن الهوى، ومن ثم جاءت عبارته إلى حد ما فاترة غير جزلة. وقد ذهب إلى أن «التاريخ تعليم للفلسفة بضرب الأَمثال»، وهو مذهب عمل فيما بعد على إذاعته ديونسيوس[٣٧] الهليكرناسي (حوالي ١٥ ق.م) والفيكونت بولنجبروك[٣٨] (١٧٣٥ م).

أما من أرخوا لرومية من الرومان أنفسهم فكانوا قليلي العدد مُتأخرى الزمن. وقد ظل تاريخ هذه المدينة اللاتينية يكتبه باليونانية مؤرخون من الإغريق إلى أن نشر كتاب «الأُصول» لكاتو[٣٩] في القرن الثاني قبل الميلاد (حوالي ١٦٠ ق.م). وأول كتاب يُعتد به في التاريخ اللاتيني هو بلا مراء الكتاب الفذ المسمى بـ«الحرب الغوليّة»[٤٠]، كتبه يوليوس قيصر، ذلك الرجل العظيم، الجمهوري، الديمقراطي، الذي غدا اسمه علمًا على الإمبراطورية الأوتوقراطية، والعبقري الذي لا يشق له غبار في ميادين السياسة، والحرب، والخطابة، والأدب. إلا أن كتابه المذكور (٥١ ق.م) وإن كان يعطينا صورة ناطقة رائعة لسبع وقائع من الثمانٍ التي

---

(٣٧) **Dionysius** مُؤرخ إغريقي نزح إلى رومية بعد انتهاء الفتن الداخلية، ودرس بها اللاتينية، وكتب كتابًا في تاريخ رومية بقى منه نحو نصفه الأول ونُبذ يسيرة من نصفه الثاني.

(٣٨) **Bolingbroke** (١٦٧٨ – ١٧٦١) سياسي وفيلسوف إنجليزي مشهور بقدرته الخطابية. وضع كتابًا سماه «رسائل في دراسة التاريخ **Letters on the Study of History**».

(٣٩) **Cato** (٢٣٧ – ١٤٢ ق.م) خطيب روماني قديم عُرِفَ بصرامة مبادئه كان يتخوف قرطجنة على رومية، ويقول دائمًا «يجب أن تُهدم قرطجنة».

(٤٠) **The Gallic War** نسبة إلى الغول **Gaul**، وهو الاسم القديم للأَرض المحدودة بجبال الألب والبرانس والمحيط الأطلسي ونهر الرين.

ترتب عليها ضم إقليم جديد إلى الدولة الرومانية، وامتداد الحضارة اللاتينية من بحر الروم إلى المحيط الأطلسي، فإنه قبل كل شيء سيرة شخصية لمؤلفه، بل هو في واقع الأمر دفاع عن سياسة قيصر على الرغم من كل تكتمه ذاتيته. وما يُقال عن كتاب (الحرب الغالية) يُقال عن كتاب آخر ليوليوس قيصر يُسمى «تعليقات على الحرب الأهلية»[٤١] نُشِرَ بعد وفاة قيصر في عام ٤٤ ق.م، ويُعتبر تتمة للكتاب الأول وإن كان أقل منه دقة وإحكامًا.

ثم تأتي بحق بعد كتابي قيصر المنقطع النظير كُتب مُعاصره ومؤازره سالسُت[٤٢] (٨٦ – ٣٤ ق.م). كتب سالست في أحداث عصره العاصف المضطرب تاريخًا[٤٣] مُطولًا لم تبق منه مع الأسف إلا قطع يسيرة.

كتب كذلك رسالتين: إحداهما في «مؤامرة كاتلين»[٤٤] التي وقعت على مشهد منه، والأُخرى في «الحرب اليوجرثية»[٤٥] التي تقدمت عصره

---

(٤١) **Commentaries on the Civil War**، وهي الحرب التي وقعت بين يوليوس قيصر وبين بومبي ومجلس السناتو، وفيها انتصر قيصر.

(٤٢) **Sallust**.

(٤٣) هو المعروف بـ **Histori ae**.

(٤٤) **Catiline's Conspiracy** (٦٣ – ٦٢ ق.م) هي مؤامرة سياسية واسعة النطاق دبرها رجل من أُسرة رومانية نبيلة الأصل رقيقة الحال اسمه كاتلين، وقد اختلطت فيها رغبته الخاصة في تقلد القنصلية بالرغبة العامة في القضاء على الحكومة الأرستقراطية في رومية. وقد فشلت المؤامرة لعلم شيشيرون هبا قبل وقوعها وحملته على كاتلين في خطب رنانة ألقاها بمجلس السناتو.

(٤٥) **Jugurthine War**، ويُقال لها أيضًا الحرب النوميدية **The Numidian War** (١١١ – ١٠٦ ق.م)، هي حرب وقعت بين رومية ويوجرثا ملك نوميدية (بأفريقية الشمالية الغربية)، وفي أثنائها استطاع يوجرثا أن يرشو قائدين رومانيين، ويهزم ثالثًا، ثم هزم هو أخيرًا وأسر وأودع السجن حيث أميت جوعًا.

بجيلين من الزمان. وقصته عن كاتلين تُعد بوجه عام قطعة صحافية رائعة، كما أن وصفه للنزاع بين رومية ويوجرثا يتضمن بحثًا يفيد أنه كان في سعة اطلاعه وقدرته الفنية، مؤرخًا غير عادي. كان يكتب تارة بعامل الرغبة في التلذذ بأَن يقص عليك قصة طريفة بأُسلوب طريف، وأُخرى، وذلك محل الغرض عنده، بعامل الرغبة في أن يذيع في الملأ الروماني نذره بأَن عجزًا وخيانة من قبيل ما تكشفت عنه الحرب النوميدية، وإسفافًا وغدرًا كالذي ارتكبه كاتلين وشركاؤه، كل ذلك لا محالة مسرع برومية إلى الهاوية. لقد كان سالست في كتبه شديد التشاؤم: كان يرى الجمهورية الرومانية تهبط من سيئ إلى أَسوأ، وكان ضعيف الأمل في أن نذره ومكافحة صديقه يوليوس قيصر للأرستقراطية الرومانية تحول دون تردى رومية في هاوية الدمار.

ثم أتى ليفي[٤٦] وكانت حياته (٥٩ – ١٧ ق.م) وصلة بين الجمهورية والامبراطورية أو بين العصرين الوثني والمسيحي، فكان أبهج رأيًا من سالست وأصح فراسة، كما دلت الأيام، من حيث مصير الرومان. لقد تغنى ليفي – تريتشكي[٤٧] العصر القديم – في أُسلوب يحكي أُسلوب خطابي اليونان، بمفاخر الجمهورية الرومانية، واقتص قصة فتوحها، وناشد أبناءها ما عَهِدَ فيهم من الإباء وعلو الهمة إلا احتفظوا بقوتها وحدودها، وإلا عمِلوا على زيادة تلك القوة ومد تلك الحدود.

---

[٤٦] Livy.

[٤٧] Treitschke (١٨٣٤ – ١٨٩٦) مُؤرخ وأُستاذ وكاتب سياسي ألماني، وضع كتابًا مُطولًا في تاريخ ألمانيا في القرن التاسع عشر وصل فيه إلى عام ١٨٤٧ فقط. وقد اشتهر في تاريخه بنزعته الوطنية القوية.

نعم إنه لم تخف عليه سيئات عصره، ولكنه كان مُؤمنًا بأَن رومية سوف تحسم مادتها، وتظهر عليها، وتسلم منها، كما فعلت غير مرة في أيامها العِظام الخوالي بإِزاء كوارث أشد وخطوب أفدح. أما كفايته من حيث هو مُؤرخ فيُلاحظ أنه كان قليل الضبط والتحري في الشئون التفصيلية، وأنه أجاز قصصًا كثيرة لا قيمة لها، وأنه كان يتبع هواه فيما ينبغي أن يقصد فيه وجه الحق، وأنه كان يقول في هدوء واطمئنان: «كل ما أشبه الحق في الشؤون القديمة ينبغي أن يُعتبر حقًا». وقد أباح لنفسه حرية التحدث على لسان شخصياته البارزة، فالحاجة عنده أُم الاختراع.

ثم جاء من بعد ليفي بمائة سنة تاسيت[٤٨] آخر كبار المؤرخين من الرومان، وأشهرهم على الإِطلاق من حيث اللغة والبيان (٥٥م – حوالي ١١٧م)، كان تاسيت زوجًا لابنة أجريكولا[٤٩] فاتح شمال بريطانيا، وكان قنصلًا، وكان كثير التردد على البلاط الإِمبراطوري، ومع ذلك لم يُخامره شك في تدهور أخلاق الرومان. لقد صور في حولياته بألوان بشعة ثابتة، ما كان يقع في قصور طيبريوس ونيرون من ضروب التهتك، والبغي، والقساوة، والغدر؛ ثم قابل بين ذلك كله وبين السذاجة والمزايا التي كان يتحلى بها متبربرة التيوتونيين النازلين بغابات جرمانيا والذين كانوا حديثي عهد بالاتصال بالإِمبراطورية الرومانية. لا مراء في أن تاسيت كان أخلاقيًا أكثر منه مُؤرخًا علميًا، وأنه اتخذ من التاريخ – كما اتخذ يوفنال[٥٠] من

(٤٨) Tacitus.

(٤٩) Agricola (٣٧ – ٩٣ هـ) قائد روماني اشتهر بفتوحه في بريطانيا.

(٥٠) Juvenal شاعر لاتيني هجاء (٤٢ – ١٢٥م)، ضمن أهاجيه القوية سخطه على ما فشا في المجتمع الروماني لعهده من الرذائل والمنكرات.

الشعر – سوطًا صبه على المجان المنحلين الذين كانوا يتقلدون مناصب الدولة الكبرى في الفترة الوسيطة من حياته.

ومن الأُمور التي نبهت تاسيت إِلى انحطاط الرومان ذيوع العبادة المسيحية فيهم. لم يكن تاسيت طبعًا بالرجل الذي يستطيع فهم ذلك الدين الجديد، فإِنه عندما رآه ينتشر بين طبقات الأَرقاء والغُرباء عده أقل من أن ينزل إِلى بحثه والتفكير فيه. فلما رآه يفضى بمعتنقيه إِلى الامتناع من الخدمة العسكرية، والانسحاب من الحياة الاجتماعية، ورفض العبادة التكريمية للإِمبراطور، لم يتحاش أن يعلن أن النصارى «أعداء الجنس الإِنساني». إِلا أن الدين الجديد على الرغم مما لقيه من عُقلاء هذه العاجلة من تحقير وزراية، وعلى الرغم مما ناله من ذوي العظمة الموقوتة من عدوان واقع، جعل يمتد رواقه حتى لم يجد الإِمبراطور الروماني نفسه في القرن الرابع بُدًا من أن يدخل فيه ويعلن أنه حامي حمى الكنيسة وكبير أساقفتها.

لقد كان لتنصر قُسطنطين (٣٠٦ – ٣٣٧م) وظهور الكنيسة المسيحية على الوثنية الرومانية في حدود القرن الرابع الميلادي أثر عميق في فن التأريخ، فقد تحول إِلى أيدي القساوسة والرهبان وبقى فيهم طوال العصر الوسيط؛ أي زهاء ألف سنة من الزمان. وكان من وراء ذلك أن غدا التاريخ خاضعًا للاهوت مُسخرًا له، وأنه أصبح عمليًا تعليميًا وهو ما لم يكنه قط من قبل، وأنه فقد كل صفة علمية كان يتصف بها وأصبح لا يكترث بحال لما هو حق أو مُحتمل الوقوع، وأنه غدا مشحونًا بِأَخبار الخوارق والكرامات غير معني إِلا بما له صلة بالدين، وأنه فقد حاسة النظر

إلى الأَشياء موضوعة في مواضعها، فوضع العبرانيين في صدر درامة الزمان ورد دول العالم القديم إلى المؤخرة أو إلى الجانبين. وجُملة القول إن تحول التأريخ إلى رجال الدين كان معناه محو التاريخ الصحيح من الوجود محوًا دام ألف عام. ثم حدث بعد ذلك أن تصدعت الوحدة الرائعة التي شملت العالم الروماني، واستقرت القبائل الهمجية البدائية الثقافة والنزاعة إلى الحرب فيما كان من قبل مدنًا للدولة الرومانية، وحلت الحروب المتصلة بين القبائل المذكورة محل السلم الروماني، ودرست معالم المدنية من الغرب أو كادت فلم يبق منها إلا ما أمكن استبقاؤه في الأديرة والكنائس حيث ظلت أثارة من التاريخ تُدرس وتُدون. نذكر من ذلك على سبيل المثال: تأريخ أفريقانوس[٥١] (٢٢١م)، وأوزبيوس[٥٢] (حوالي ٣٤٠م)، وجيروم[٥٣] (حوالي ٤٠٠م)، فقد ضربت حول التاريخ نطاقًا جامدًا من التوقيت الخرافي لم يستطع التاريخ حتى يومنا هذا أن يتحرر منه (كما راجعه وجدده سكاليجر[٥٤] عام ١٥٨٣ وأشر[٥٥] عام ١٦٥٠). ثم إن «الكتب التاريخية السبعة المؤلفة في الرد على الوثنيين»[٥٦] لبولس

---

(٥١) **Africanus** رحالة ومؤرخ ليبي المولد. عاش في القرن الثالث الميلادي. كتب تاريخًا للعالم من الخليقة إلى عام ٢٢١ م، وقد ضاع إلا نبذًا مضمنة في تاريخ أوزبيوس.

(٥٢) **Eusebius** (٢٦٧ – ٣٤٠) أسقف قيسارية ويُعتبر مؤسس التاريخ الكنسي.

(٥٣) **Jerome** (٣٣١ – ٤٢٠) مُؤسس الكنيسة اللاتينية ومُترجم الإنجيل إلى اللغة اللاتينية الترجمة المعروفة بالفلجات.

(٥٤) **Scaliger** (١٥٤٠ – ١٦٠٩) عالم إيطالي سيُترجم له في مناسبة آتية.

(٥٥) **Usher** (١٥٨٠ – ١٦٥٦) أسقف إرلندي، وقت الحوادث الواردة في الإنجيل توقيتًا ظهر خطؤه بعد.

(٥٦) **Septem Libri Hisro**

هروشيوس[٥٧]، ليست إلا ركامًا من الأساطير القائمة على التحيز والهوى.

وقد ظلت المرجع المعتمد في التاريخ الزمني من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر، إذ قام فلافيوس بلندس[٥٨] فقذفها بنقده الهادم إلى حيث تطرح القمامات وسقط المتاع.

غير أنه إذا كان المنهج الذي انتهجه آباء الكنيسة في التأريخ قد قضى على علم التاريخ، فإنه على سبيل التعويض عن ذلك كان المنشئ لفلسفة التاريخ، ذلك بأَن أوهام هؤلاء الآباء عن مجرى حوادث هذا العالم السفلي قد أدتهم على غرابتها إلى إنعام النظر في أحداث التاريخ وعرضها كلًّا غير مُتجزئ. فلحظوا في سير الإنسانية من جنة عدن إلى أورشليم الجديدة، أو من هبوط آدم من الجنة إلى الفداء الذي تحمله المسيح، وحدة كاملة من حيث الأُصول الدرامية. وبذلك فكوا عن التاريخ قيود الزمان والمكان، واعتبروه سجلًا حافظًا لأفعال الإله نحو الإنسان، وكسوه بذلك تجلة ووقارًا لم يعرفهما من قبل. لقد كان «تاريخ الكنيسة» لأوزبيوس (٣٢٤م) فتحًا جديدًا في عالم التأليف، إذ كان أول مُحاولة لوضع تاريخ للحضارة. وكذلك كان كتاب «مدينة الله» الذي وضعه سنت أغسطين[٥٩]

---

(٥٧) **Paulus Orosius** مُؤرخ ولاهوتي إسباني. عاش في القرن الخامس الميلادي، وكان تلميذًا للقديس أغسطين الآتي ذكره في المتن. ومنه استمد مؤرخنا ابن خلدون كثير من أخبار الروم في الجزء الثاني من تاريخه.

(٥٨) **Flavius Blondus** (١٣٨٨ – ١٤٦٣) مُؤرخ إيطالي نقاد له عِدة مُؤلفات في التاريخ الروماني.

(٥٩) **St. Augustine** (٣٥٤ – ٤٣٠م) أشهر آباء الكنيسة اللاتينية، وُلِدَ في قرية بأفريقية وتعلم في قرطجنة. ثم صار أسقفًا لكنيسة هيو **Hippo** بأفريقية، وله تآليف كثيرة أشهرها كتابه «مدينة الله» **Civitas Dei**.

(٤٢٦م) والمعدود من الكُتب البارزة في آداب العالم، أول مُحاولة لوضع خلاصة وافية لفلسفة التاريخ. على أنها مُحاولة لم تكن مُوفقة إلى حد بعيد، فالكتاب لا يحوي فلسفة ولا تاريخًا، ولكن مُجرد لاهوت وقصص، ومع ذلك فهو ثمرة مجهود جليل قام به خيال ذلك القديس. فلكي يرد أغسطين على القائلين بِأَن استيلاء القوط على رومية عام ٤١٠م، إنما كان لتخلي الرومان عن آلهتهم القديمة التي في كنفها ورعايتها علا شأن رومية، أنشأ يستعرض الشؤون العامة البشرية والإلهية، مُنذ طرد إبليس من الجنة إلى يوم الحساب الأخير. وكل ما أورده عن «دول الشيطان»[٦٠]، أو الدول الوثنية الأربع المتتابعة: آشور، وفارس، ومقدونية، ورومية، إنما هو مُجرد مسخ للحقيقة وتخليط لضروب شتَّى من اللغو والقول السخيف. ثم إن تفلسفه يرد البشر مجرد لعب كلعب الصبيان، أو مُجرد بيادق لا حيلة لها في اللعبة الرهيبة الدائرة بين رحاها بين الإله والشيطان على رقعة اللانهائية وخلال آماد الأبدية. ومع ذلك كله ظل قصور أغسطين للتاريخ والفلسفة سائدًا طوال الألف سنة التي تتألف منها العصور الوسطى، ولم يكن في سيادته تلك إلا كابوسًا جاثمًا على العقول والأفكار.

أما وقد ابتدئت العصور الوُسطى بهذه البداية الموفقة، فإنها أخذت بعد كفايتها من التاريخ الزمني عن أغسطين وهروشيوس، كما أخذت عن حاجتها من التاريخ الكنسي الذ اعتبر صالحًا لها عن أوزبيوس ومن ذيلوا

(٦٠) Civitae Diaboli.

عليه أمثال سقراط، وسوزومين وتيودورت[٦١]، وكسيودوراس[٦٢]. أما الشيء المبتكر الذي استفاده التاريخ من العصور الوسطى، فكان من طراز يختلف جد الاختلاف عمَّا ذُكِر. كان بصفة مبدئية عبارة عن شيئين: حوليات[٦٣]، وتآريخ[٦٤]. أما «الحوليات» فكانت شديدة الشبه بنظائرها القديمة عند قدماء المصريين والبابليين. كانت مجرد تقييدات للحوادث المعاصرة يُعلق بها على التقاويم الموقتة لعيد الفصح. وكثير من الحوادث الواردة في حوليات العصور الوسطى ولا سيما أوائلها، من أتفه ما يكون، فهو من قبيل الزلازل، والخوارق، وتداول المخلفات المقدسة ونتاج خنازير سداسية القوائم، وما أشبه ذلك. ثم أخذت هذه التقييدات ترتقي شيئًا فشيئًا حتى أصبحت في أواخر العصور الوسطى سجلات نفيسة لأحداث التاريخ. من هذا القبيل حوليات روجر الهوفدني[٦٥] المعروفة بـ«حوليات كولونيا الكبرى»[٦٦]، وأما «التآريخ» فكان الغرض منها تلخيص تاريخ العالم مُنذ الخليقة إلى وقت تدوينها. ويقتصر القسم الأول منها في توقيت الحوادث على نقل مفتريات أوزبيوس. أما أقسامها الأخيرة التي تتناول ذكر حوادث أيامها فتُستمد من مصادر أصح من المصدر المذكور وتصبح

---

(٦١) **Theodoret, Sozomen, Socrates** وهم من مُؤرخي الكنيسة الشرقية في القرن الخامس الميلادي.

(٦٢) **Cassiodoras** (٤٦٨ – ٥٦٢) كاتب وسياسي لاتيني.

(٦٣) **Annals**.

(٦٤) **Chronicles**.

(٦٥) **Roger of Hoveden** مُؤرخ إنجليزي، كتب تأريخًا لبلاده وصل فيه إلى عام وفاته (١٢٠١) ويمتاز بِأهمية ما كتب فيه عن السنوات التسع الأخيرة.

(٦٦) **Greater Annals of Cologne**.

بالتدريج مُؤلفات لا يجد الإنسان بأسًا بتسميتها «تاريخًا». نُورِد على سبيل المثال بعض أشهر وأنفس «التآريخ» التي ظهرت في أواخر العصور الوُسطى. ففي فرنسا ظهر «تأريخ نانت»[٦٧] (إلى عام ١٠٤٩م) وفي ألمانيا ظهر «التأريخ الأنجلوسكسوني»[٦٨] (حتى عام ١١٥٤) و«تأريخ أوتو الفريزنجي»[٦٩] (حتى عام ١٢٥٨)، وفي إنجلترا ظهر «التأريخ الأكبر» لماتيوباريس[٧٠] (حتى عام ١٢٥٥).

ثم أخذ الكتاب في القرنين الرابع عشر والخامس عشر يعدلون عن الشكل الحولي ويقتصدون في ذكر المعجزات والكرامات ويتوخون أُسلوب القصة المنسوقة. وأصلح ما يتمثل به للتآليف التي نحا أصحابها هذا النحو «تآريخ» فرواسَّار[٧١] (١٣٣٧ – ١٤١٠) الشهيرة الممتعة، و«مذكرات» فيليب[٧٢] ده كومِّين (١٤٤٥ – ١٥٠٩) التي لا تقل عن «تآريخ» فرواسَّار جاذبية وإن كانت تفوقها كثيرًا من حيث الصفة العلمية.

---

(٦٧) **Chronicle of Nantes**.

(٦٨) **Anglo-Saxon Chronicle**.

(٦٩) **Otto of Freising** (١١١٤ – ١١٥٨) أسقف ومؤرخ ألماني، اشترك في الحرب الصليبية التي قادها ملك ألمانيا كنراد الثالث، ثم عاد إلى بفاريا عام ١١٤٩ وقد نحا في تأريخه منحى أغسطين وهيروشوس في تاريخهما.

(٧٠) **Matthew of Paris** (١٢٥٩ – ؟) مؤرخ وراهب إنجليزي اشتهر في تأريخه برواية الحوادث المعاصرة له عمَّن شهدها أو اشترك فيها، وقد عُرِفَ بتنوع مدوناته، فكان يعني بتسجيل ما يصل إليه من أخبار العالم المتمدن لوقته في الغرب والشرق.

(٧١) **Froissart** مُؤرخ فرنسي يمتاز تاريخه من عام ١٣٢٥ إلى ١٤٠٠ برشاقة الأُسلوب وبسطاته.

(٧٢) **Philippe de Commines** مُؤرخ فرنسي يُعرف بأبي التاريخ الحديث تقلب في كثير من المناصب السياسية، وفي أواخر حياته كتب مذكراته **Memoirs** وتُعتبر من عيون التواريخ بما اشتملت عليه من بلاغة الوصف، وصحة الحُكم، والقدرة على فهم الوقائع.

ربما كان التقدم الملحوظ في تآريخ العهد الأخير من العصور الوسطى ناشئًا إلى حد بعيد من تأثير الحضارة العربية التي شملت العالم الإسلامي في ذلك الزمان. لقد تماست النصرانية والإسلام في الأرض المقدسة وما يُجاورها، وفي صقلية وجنوبي إيطاليا والأندلس؛ ولم يكن هذا التماس بحال من الأحوال عدائيًا لا في جُملته ولا في نفس الأساس الذي قام عليه. فكما أن بَلْعام(٧٣) خرج ليدعو على بني إسرائيل فإذا به يدعو لهم، فكذلك الصليبيون، خرجوا من ديارهم لقتال المسلمين فإذا هُم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة. لقد بهت أشباه الهمج من مُقاتلة الصليبيين عندما رأوا «الكفار»، الذين كانوا ينكرون من الناحية اللاهوتية ديانتهم، على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحانًا لا تصح معه المقارنة بينهما. ففي مجال التأريخ الذي نحن بصدد الكلام عليه وحده، نجد المسعودي العربي(٧٤) (؟ – ٩٥٦) يعرض في كتابه «مروج الذهب» عرض خبير ماهر تاريخ وإثنغرافية غرب آسيا وشمال أفريقية وشرق أُوربا.

---

(٧٣) هو بلعام بن باعوراء، وتلخيص قصته على ما جاء في كتاب (عرائس المجالس) أنه كان رجلًا من الكنعانيين من مدينة بلقاء، مدينة الجبارين، وكان مُجاب الدعوة. فلما قصد موسى وقومه من بني إسرائيل مدينة الجبارين أتى الكنعانيون إلى بلعام وسألوه أن يدعو على بني إسرائيل فآمر ربه فنهاه عن أن يفعل. ولكن الكنعانيين ما زالوا به حتى فتنوه فدعا عليهم. فكان لا يدعو على بني إسرائيل بشر إلا أصاب الكنعانيين ولا يدعو للكنعانيين بخير إلا أصاب بني إسرائيل.

(٧٤) of Arabia هو علي بن الحسين بن علي المسعودي (؟ – ٣٤٦ هـ) يتصل نسبه بعبد الله بن مسعود الصحابي المعروف، وهو من كبار مُؤرخي القرن الرابع الهجري. صنف كتبًا كثيرة في التاريخ والجغرافية، بقى منها وطبع كتابات «مروج الذهب» و«التنبيه والأشراف» وقد نسبه المؤلف إلى بلاد العرب والأصح أن يُقال إنه عراقي بغدادي.

ونجد ابن خلكان الدمشقي (١٢١١ – ١٢٨٢) يُصنف مُعجمًا[٧٥] في التراجم التاريخية جديرًا بِأَن يقرن إِلى «تراجم فلوطرخ»[٧٦]. ثم نجد شيخ مؤرخي العرب عبد الرحمن بن خلدون التونسي[٧٧] (١٣٣٢ – ١٤٠٦م) قد كتب فيما كتب مُقدمة لتاريخ عام بلغت من سعة الإِحاطة، وصحة النظر، وعُمق الفلسفة، ما جعلها مِصداقًا لما قال الأُستاذ قلنت[٧٨] في حق ذلك العالم التونسي الكبير من أنه «واضع علم التاريخ».

انتقل أثر هذه الثقافة العربية إِلى أوربا النصرانية من طريق مدارس الأندلس وجنوب إِيطاليا، فكان من العوامل القوية في انتهاء العصور

---

(٧٥) أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي. وُلِدَ بأربل عام ٦٠٨ ه وتُوفي بدمشق عام ٦٨١ ه. ولي التدريس وقضاء القضاة بمصر والشام، وكتابه «وفيات الأعيان» كتاب جليل مشهور.

(المترجم)

وقد بلغ من نفاسته تأليفًا وموضوعًا أن وجد بعد ستمائة سنة من وضعه أهلًا للترجمة إِلى الإِنجليزية. انظر: ibn Khallikan's Biograpnical Dictionary M. Slane 4 Vols (1842 – 1871)

(المؤلف)

(٧٦) Parallel Lives of Plutarch وفلوطرخ (٤٥؟ – ١٢٥م) مؤرخ وأخلاقي يوناني، وكتابه المذكور في المتن معدود من الكُتب البارزة في آداب العالم وهو عبارة عن تراجم مشهوري اليونان والرومان.

(٧٧) عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ – ٨٠٨ ه) وُلِدَ وتعلم بتونس ثم اتصل بملوك أفريقية الشمالية والأندلس لعهده وولي لبعضهم أعمالًا أفادته خبرة عملية بالسياسة، ثم رحل إِلى مصر وولي بها التدريس في الجامع الأزهر وقضاء المالكية، وخرج مع السلطان الناصر إِلى الشام لحرب تيمورلنك، ثم عاد إِلى القاهرة حيث تُوفي عام ٨٠٨. وأعظم آثاره تاريخه المشهور الذي يمتاز بمقدمته الفلسفية الرائعة وبالقسم الخاص بتاريخ البربر.

(المترجم)

راجع الفصل النفيس الذي عقده ر. فلنت لابن خلدون وتاريخه في كتاب «تاريخ فلسفة التاريخ» (١٨٩٣) ص ١٥٧ – ١٧١

(المؤلف)

(٧٨) R. Flint (١٨٣٨ – ١٩١٠) فيلسوف وعالم باللهوت إنجليزي. كتب عِدة كُتب في الدين والفلسفة أهمها «تاريخ فلسفة التاريخ» **History of the Philosophy of History**.

الوسطى وانبثاق فجر العصور الحديثة. وهُناك عوامل أُخرى ساعدت على بلوغ هذه الغاية؛ بعضها جاء من الشرق الأقصى بواسطة المسالك التجارية التي كشفتها فتوح جنكزخان (١١٦٢ – ١٢٢٧) وخلفائه، وكان عبارة عن ثلاثة أُمور:

(١) فن الطباعة، وكان فيه القضاء الأخير على احتكار رجال الدين للعلم.

(٢) استعمال بيت الإِبرة في الملاحة، وقد يسر القيام برحلات الاستكشاف الكبرى.

(٣) ثم اختراع البارود، وقد أحدث في صناعة الحرب انقلابًا قضى على ما كان للفروسية الإِقطاعية من سيادة عسكرية. لا جرم أن المائة سنة التي ابتدأت من عام ١٤٥٠، وانتهت في عام ١٥٥٠، كانت عصر الانتقال العظيم.

الفصل الثالث

إِلمامه بالتاريخ عند العرب

التاريخ عند العرب لغة واصطلاحًا – التاريخ في الجاهلية – التاريخ من حيث هو فرع من علم الحديث – أخباريو القرن الثاني – مُؤرخو القرن الثالث – مُؤرخو العرب من بعد القرن الثالث – الطريقة العلمية لمؤرخي العرب – جُملة القول في مُؤرخي العرب

يقول مُترجم الكتاب لقد نوه المؤلف في الفصل المتقدم بعلم التاريخ عند العرب دون أن يخصه بكلمة مفصلة، فإِتمامًا للفائدة نعقد هذا الفصل في معنى التاريخ ونشأته وتطوره عند العرب، مُلتزمين فيه طريقة المؤلف من الإِيجاز والتعميم فنقول:

التأريخ بالهمز، والتاريخ بتسهيل الهمز، والتوريخ، تعريف الوقت. وهو لفظ عربي أصيل، وقيل دخيل مأخوذ من أصل سرياني معناه (الشهر)؛ وكانوا قبل الإِسلام يوقتون بالنجوم والأهلة وينسأون الشهور ويكبسونها إِلحاقًا للسنة القمرية بالسنة الشمسية؛ وكانوا يبنون التأريخ على الليالي دون الأيام بخلاف العجم، فإِنهم كانوا يبنونه على الأيام دون الليالي؛ وكانوا يُؤرخون من الحوادث العِظام والوقائع المشهورة كعام الفيل وبناء الكعبة ونحوهما. فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب أمر عمر الناس فأرخوا من عام الهجرة، ومضى الأمر على ذلك حتى يومنا هذا.

هذا في أصل وضع اللفظ وما يجري مجراه؛ أما في الاصطلاح فالتاريخ عندهم فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها؛ وموضوعه الإنسان والزمان[٧٩]، وهو على هذا المعنى قديم عندهم، نما معرفة ساذجة من معارف العرب قبل الإسلام، ثم تكمل على الزمن حتى أصبح علمًا من أجل علومهم وأعظمها شأنًا. فعرب الجاهلية كانوا لغلبة الأُمية عليهم يتذاكرون أيامهم وأحداثهم من طريق الرواية الشفوية على هيئة أشعار مقصدة أو أخبار مُتفرقة، ويستثنى من تلك الحال من اطرح منهم البداوة ونزل حواضر الجزيرة وخاصة أهل اليمن والحيرة، فقد نقش الأولون بالخط المسند على مبانيهم لمًا من أخبار ملوكهم وشؤونهم العامة، ودَوَّن الآخرون بخطهم أخبار مملكتهم وأودعوها أديار الحيرة وكنائسها[٨٠].

فلما جاء الإسلام، وقامت الدولة العربية، ومست الحاجة إلى معرفة سيرة الرسول العربي وأحواله استقصاء للسنة، توفر رجال على جمع أخبار للسيرة وتدوينها، فكان ذلك بدء اشتغال العرب في الإسلام بالتاريخ. على أن التاريخ لم يخرج يومئذ عن كونه نوعًا من أنواع الحديث. وأقدم من كتب في السيرة عروة بن الزبير بن العوام المتوفى عام **٩٣** هـ، وأبان ابن عثمان بن عفان المتوفى عام **١٠٥** هـ، ووهب بن منبه المتوفى حوالي عام **١١٠** هـ. ثم انتهى علم السيرة والمغازى إلى رجلين من الموالي هما مُحَّد ابن إسحاق المتوفى عام **١٥٢** هـ، وقد اختصر سيرته ابن هشام المتوفى عام **٢١٨** هـ، ومُختصره هذا هو الذي بأيدي الناس اليوم؛ ثم مُحَّد بن عمر الواقدي المتوفى

---

[٧٩] كتاب «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» للسخاوي ص ٧.

[٨٠] تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٣٧.

عام ٢٠٧. وكثير من روايته مضمن في كتاب الطبقات الكبير لابن سعد المتوفى عام ٢٣٠ هـ، هذا إلى كتاب له في مغازى الرسول مطبوع متداول[٨١].

***

وفي أثناء ذلك كانت قد تمت الفتوح العربية، ووقعت الفتن العُظمى، ونبض عرق العصبية القبلية، وشاعت بين المسلمين أخبار الأُمم القديمة والديانات غير الإسلامية على أيدي رجال مثل كعب الأحبار المتوفى عام ٣٤ هـ (؟) وعبيد بن شرية المتوفى حوالي عام ٧٠ هـ ووهب بن منبه المتوفى حوالي عام ١١٠ هـ. فتوافرت أسباب شتَّى اقتضت جمع الأخبار المتصلة بكل ذلك وتدوينها؛ فتدوين أخبار القدماء مثلًا دعت إليه جملة دواع، منها رغبة العلماء في فهم إشارات إلى الأمم الغابرة وردت في الكتاب والسنة، ومنها ميل بعض الخلفاء كمعاوية والمنصور إلى الاطلاع على سياسات الملوك ومكايدهم؛ هذا فضلًا عن حرص الموالي على التنويه بمجد بلادهم القديم. ثم إن تدوين الأنساب وأيام العرب كان مُطاوعة لحاجة الشعراء إليها عامة في مقام الفخر والهجاء، وحاجة الدولة للأنساب خاصة للاستعانة بها في تقدير العطاء للجند. وكان الباعث الأقوى على تدوين أخبار الفتوح رغبة ولاة الأمور في معرفة ما فتح من البلدان صلحًا، وما فتح عنوة، وما فتح بعهد؛ لأن لكل حكمًا خاصًا من حيث الجزية

[٨١] انظر «ضحى الإسلام» جـ ٢ ص ٣٠٩ – ٣٣٩ وبحث الأُستاذ هوروفتز في سير النبي الأُولى ومُؤلفيها:
The Earliest Biographies of the Prephet and their Authors.

والخراج. فلما دون ذلك كله وجد إلى جانب السيرة نوع آخر من الرواية التاريخية موضوعه أخبار الماضين، وأحوال الجاهلية، وحوادث الإسلام. وقد أطلقوا على ذلك كله لفظ «الأخبار» وعلى المتخصص في روايته «الإخباري»، كما عرف المتخصص في رواية الحديث «بالمحدث». ونلحظ النقلة من الحديث إلى الأخبار في رجال خواص منهم ابن إسحق والواقدي المتقدما الذكر، والمدائني المتوفى عام ٢٢٥ هـ، فكل كان محدثًا وإخباريًا معًا.

كما نلحظ بداية التخصص في الأخبار في مثل مُحَمَّد بن السائب الكلبي المتوفى عام ١٤٦ هـ، وكان مقدمًا في علم الأنساب، وعوانة بن الحكم المتوفى عام ١٤٧، وقد جمع أخبار بني أُمية، وأبي مخنف المتوفى عام ١٥٧، وله كتب في الردة ووقعة الجمل ووقعة صفين وأخبار الخوارج، وسيف بن عمر المتوفى عام ١٧٠، وله كتاب كبير في الفتوح، وهشام بن مُحَمَّد بن السائب الكلبي المتوفى عام ٢٠٤، وله في أخبار الأوائل وأيام العرب وأنسابهم وأخبار الإسلام كُتب كثيرة أحصاها ابن النديم في كتاب الفهرست، وقد طبع منها حديثًا «كتاب الأصنام».

ووجد في تلك المرحلة نوع من التخصص المحلي في رواية الأخبار، فكان لكل قطر من الأقطار الإسلامية الهامة إخباريون اختصوا بجمع أخباره وتدوينها. قال ابن النديم[٨٢]: «قالت العُلماء: أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها

---

(٨٢) الفهرست ص ١٣٧.

وفتوحها يزيد على غيره، والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس، والواقدي بأمر الحجاز والسيرة. وقد اشتركوا في فتوح الشام».

على أن المحدث كان عند جمهور ذلك الزمان أشرف موضوعًا وأسمى منزلة من الأخباري؛ ويرجع ذلك إلى شرف موضوع الحديث من جهة وإلى أن الأخبار وخصوصًا قديمها كانت مظنة الإغراب والتلفيق والاختلاق من جهة أُخرى. ولقد بلغ بهم الأمر أن كانوا يضعفون المحدث إذا مال إلى الأخبار، فقد ضعفوا مُحَمَّد بن إسحق، وكان أصلًا راوية للحديث، ثم صار يحمل عن اليهود والنصارى ويُسميهم أهل العلم الأول. وربما لم يستحسنوا للفقيه المختص باستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة أن يتوفر على طلب الأخبار. روى ابن خلكان[٨٣] «أن أبا يوسف كان يحفظ المغازي وأيام العرب، وأنه مضى ليستمع المغازي من مُحَمَّد بن إسحق أو غيره وأخل بمجلس أبي حنيفة، فلما أتاه قال له أبو حنيفة: يا أبا يوسف! من كان صاحب راية جالوت؟ فقال له أبو يوسف: إنك إمام؛ وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملأ أيما كان أولًا، وقعة بدر أو أُحد، فإنك لا تدري أيهما كان قبل الآخر، فأمسك عنه».

***

وجُملة القول إن أهل السيرة والأخبار قد رسموا في أواخر القرن الثاني الأبواب الأساسية للتاريخ عند العرب، وهي لا تعدو أُمورًا أربعة: (١) أخبار الماضين (٢) أحوال العرب قبل الإسلام (٣) السيرة (٤) أخبار الدولة الإسلامية. ومن أوائل القرن الثالث إلى أوائل الرابع يلحظ الباحث

[٨٣] وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٥٢.

زيادة جوهرية في المادة التاريخية ودقة وتحرزًا في مصادرها. فقد استقرت دواوين الدولة العباسية وتمهدت قواعدها ولا سيما دواوين الإنشاء والجند والخراج والبريد، وأمكن المشتغلين بالتاريخ أن ينتفعوا بها في صناعتهم، كما يُؤخذ مما اشتملت عليه تواريخ القرن الثالث، من عهود رسمية ومُراسلات سياسية وإحصاءات للمواليد والوفيات ومد ولاية كبار الدولة من وزارة وقواد وعُمال وقُضاة ووُلاة لمواسم الحج ووصف الحروب الداخلية ووقائع الغزو على الحدود صيفًا وشتاء وغير ذلك. ثم إنه في العصر المذكور قويت حركة النقل عن اللغات الأجنبية كالفارسية والسريانية واليونانية واللاتينية. وقد بدأت هذه الحركة من حيث التاريخ بترجمة ابن المقفع عن الفارسية حوالي عام ١٤٠ لكتابي خدينامه وآيينامه في تاريخ الفرس وأحوالهم[٨٤]. ومن هذا القبيل عهد أردشير[٨٥] الذي ترجمه إلى العربية البلاذري المتوفى عام ٢٧٩، ومنه أيضًا ترجمة تاريخ هيروشيوس وإن كان ذلك قد تم بالأندلس حوالي مُنتصف القرن الرابع[٨٦].

ثم إن سهولة التنقل بين أنحاء الدولة الإسلامية حملت كثيرًا من طُلاب العلم والمؤرخين خاصة على الرحلة في طلب الرواية وأخذها عن الشيوخ، ولرؤية عجائب البلاد ومُشاهدة آثارها، فوجد بذلك مصدر هام للمادة التاريخية هو المشافهة والمشاهدة. وعلى الجملة فإن مُؤرخي القرن الثالث حددوا بصفة عامة مصادر التاريخ عند العرب فكانت أربعة أشياء

---

(٨٤) الفهرست ص ١٧٢.

(٨٥) الفهرست ص ١٦٤.

(٨٦) تاريخ ابن خلدون جـ ٢ ص ١٩٧.

(١) كُتب السيرة والأخبار. (٢) السجلات الرسمية. (٣) الكُتب المنقولة عن اللغة الأجنبية. (٤) المشاهدة والمشافهة.

وبتعاظم المادة التاريخية وتحرر مصادرها بالقياس إلى ما كانت عليه الحال من قبل لم ير كثير من أفاضل العُلماء وثقات الفقهاء بأسًا بالتوفر على دراسة التاريخ والتأليف فيه؛ ومن ثم أخذ التاريخ مظهره الرائع كعلم من أجل علوم المسلمين وأعظمها شأنًا، وأخذ المؤرخون مكانتهم بين عُلماء الدولة الإسلامية كرجال لهم خطرهم في الحياة العامة سياسية كانت أو عقلية أو أدبية. وتضاءل مدلول لفظ الإخباري حتى أصبح كما فسره بعد السمعاني المتوفى عام ٥٦٢ بقوله: «ويُقال لمن يروي الحكايات والقصص والنوادر الإخباري»[٨٧]. نذكر من بين مُؤرخي القرن الثالث ابن قُتيبة صاحب كتاب المعارف وقد تُوفي عام ٢٧٠، والبلاذري صاحب كتابي فتوح البلدان وأنساب الأشراف، وقد تُوفي عام ٢٧٩، واليعقوبي صاحب التاريخ المضاف إليه وقد تُوفي عام ٢٨٤، والدينوري صاحب الأخبار الطوال والمتوفى عام ٢٩٠، وابن جرير الطبري صاحب تاريخ الأُمم والملوك والمتوفى عام ٣١٠ هـ.

***

أخذت الوحدة السياسية التي انتظمت الدولة العباسية تتداعي من منتصف القرن الثالث. ولم تلبث تلك الدولة أن استحالت دويلات

[٨٧] هذا النص دون مقام الاستشهاد به مأخوذ عن ضحى الإسلام جـ ٢ ص ٣٥٦.

مُتعددة يحكمها متغلبون مختلفو الأجناس في مشارق الدولة ومغاربها، وجرت اللامركزية السياسية إلى لا مركزية أدبية، فتوزعت الثقافة الإسلامية على الأمصار بعد أن كادت تكون مجموعة في حاضرة الخلافة وحدها. ونافست بغدادَ قرطبُة والقيروانُ ومصر وحلب وأصفهان وغزنة والري وبلخ وغيرها، وكثر العلماء في الأمصار كثرة عظيمة. كل ذلك أثر في كتابة التاريخ عند العرب تأثيرًا كبيرًا يتضح في كثرة ما ظهر ابتداء من منتصف القرن الثالث من التواريخ المحلية وكُتب التراجم والطبقات خاصة؛ من ذلك فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى عام ٢٥٧ وكتاب ولاة مصر وقضاتها للكندي المتوفى عام ٣٥٠، وتاريخ بغداد وأعلامها للخطيب البغدادي المتوفى عام ٤٦٣، وتاريخ دمشق وأعلامها لابن عساكر المتوفى عام ٥٧١، والبيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى (القرن السابع)، ومُعجم الأُدباء لياقوت الحموي (٦٢٦)، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٦٨١ هـ)، وكتابا الخطط والسلوك للمقريزي (٨٤٥).

وإلى جانب ذلك ظلت سلسلة التواريخ العامة مطردة من حيث انتهى الطبري، فوضع المسعودي المتوفى عام ٣٤٦ كتابيه مروج الذهب وأخبار الزمان، وصنف ابن مسكويه (٤٢١) تجارب الأُمم، وابن الأثير (٦٣٠) كتابه الكامل، وأبو الفداء (٧٣٢) كتابه المختصر في أخبار البشر، وابن خلدون (٨٠٨) تاريخه الكبير المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر.

واستتبع التفرق السياسي وهن القوة الذاتية للعالم الإِسلامي فطمع فيه أعداؤه من وراء الحدود واجتراءوا عليه واستباحوا حماه، وبدت مُقدمات ذلك في استئساد الروم وانتقاصهم شمالي الشام في القرن الرابع، ثم أغار الصليبيون في القرنين الخامس والسادس على ملك المسلمين بالمغرب والمشرق، ولم تكد تلك الغمة تنجلي عن مشرق العالم الإِسلامي حتى كانت غارة التتار وهي الداهية الدهياء والطامة الكُبرى، فسقطت الخلافة العباسية ودمرت معالم الحضارة الإِسلامية في القارة الأسيوية تدميرًا.

وفي أثناء ذلك كانت مُدن الأندلس وكورها تتهاوى الواحدة تلو الأُخرى في أيدي الأسبان حتى انحصر ملك المسلمين بذلك القطر في رقعة ضيقة من الأرض هي غرناطة وأحوازها، وبذلك دخل العالم الإِسلامي كله في طور جديد من تاريخه يختلف عن الطور السابق عليه اختلافًا بعيدًا.

واتضحت صروف الزمن وعبر التاريخ بعد تلك الأحداث الجسام والخطوب العظام، فكان طبيعيًا أن ينحو المؤرخ الإِسلامي في التاريخ تلقاء ذلك كله منحى فلسفيًا عميقًا فيتعرف علل الحوادث وأسباب قيام الدول وعلل سقوطها ومظاهر العمران وأُصول الاجتماع ونحو ذلك. وهذا ما صنعه فيلسوف مُؤرخي العرب قاطبة عبد الرحمن بن خلدون المتوفى عام ٨٠٨ في مقدمة تاريخه التي لم يكتب مثلها في الإِسلام على الإطلاق.

ثم لم يلبث علم التاريخ أن نظر إليه على أنه يُمكن أن يكون هو نفسه محلًا للبحث والتاريخ، فوضع في ذلك الصفدي (٦٧٤) مُقدمة

كتابه «الوافي بالوفيات» والسخاوي المتوفى عام ٩٠٢ كتابه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ».

فيرى القارئ مما تقدم أنه فيما بين الرواية الشفوية القديمة وفلسفة التاريخ لابن خلدون، وتاريخ التاريخ للسخاوي قد نما التاريخ عند العرب وتفرع وأزهر وأثمر؛ فلما نصب مُعينه بانحلال الحياة الإسلامية العامة المستقرة جرى عليه ما يجري على الأحياء من حكم البلى والفناء متى انقطعت مادة حياتها.

***

ذلك مُجمل حال التاريخ عند العرب نشوءًا واكتمالًا وهرمًا وانقطاعًا؛ أما من حيث الطريقة العلمية التي اتبعوها فالتاريخ ابتدأ عندهم كما رأينا فرعًا من علم الحديث، فكان حريًا أن يتأثر بطريقة المحدثين في جمع الرواية التاريخية ونقدها، فكان أهل السيرة والمغازي والأخبار يجمعون مأثور الروايات ويدونونها مع إسنادها إلى مصدرها الأصلي، وهو عادة شخص عدل عندهم له علم مُباشر بالواقعة المروية كأن يكون عاينها أو اشترك فيها كما كانت الحال في رواية أخبار السيرة والإسلام، أو أخذها من بعض مظلتها ككتاب قديم ضاع، أو من بعض أهل البادية، وتلك كانت الحال في رواية أخبار الأُمم القديمة والعرب قبل الإسلام. فكان النقد عندهم، أو الجرح والتعديل كما كانوا يُسمونه، ذاتيًا مُنصبًا على الرواة، لا موضوعيًا منصبًا على المرويات. هذه الطريقة ضمنت لهم إلى حد

بعيد صحة الأخبار المتصلة بالقسم التاريخي من السيرة وحوادث الدولة الإسلامية، ولكنها عجزت عن أن تضمن لهم ذلك في أخبار القدماء والعرب قبل الإسلام والقسم الأول من السيرة. والحق إن هذه الموضوعات الأخيرة أضعف نواحي كتب التاريخ عند العرب وأغمضها.

وإذا كان الإسناد عندهم أساس نقد الأخبار فقد كان أساس ضبطها هو التوقيت الدقيق لها بالسنين والشهور والأيام، وهو ضابط انفردوا به عن نظرائهم عند اليونان والرومان وأوربا في العصور الوسطى. قال المؤرخ الإنجليزي (بكل)[٨٨] «إن التوقيت على هذا النحو لما يُعرف في أوربا قبل عام ١٥٩٧». على أن نظام التوقيت ابتدأ ضعيفًا عندهم، فكثير من حوادث الفتوح الأُولى قد وقع في توقيته خلط شديد واختلاف كثير، ثم تكمل على مر الزمن بتعدد طُرق الخبر الواحد وبالأخذ عن المصادر الرسمية التي سبقت الإشارة إليها.

وقد اتبعوا طريقة عُلماء الحديث كذلك في تدارس كُتب التاريخ وتلقيها عن مؤلفيها بالسند المتصل قراءة وسماعًا وإجازة؛ فكتاب الأصنام مثلًا تتصل سلسلة روايته عن ابن الكلبي من عام ٢٠١ إلى قريب من عام ٥٠٠، ومثل ذلك يُقال في مغازى الواقدي وكثير غيره من كُتب التاريخ. وهي مُبالغة محمودة في المحافظة على النصوص التاريخية الهامة والكُتب المعتبرة أمهات وأصولًا.

---

[٨٨] **Buckle** انظر كتاب **Arabic Historians** لمرجوليوت ص ١٧.

تلك طريقتهم في جمع الرواية التاريخية ونقدها وضبطها؛ أما عرضهم لها فأصحاب السيرة والمغازي والإخباريون الأوائل كانوا يجمعون الروايات ويرتبونها بحسب موضوعاتها رسائل أو كُتبًا تشبه أبواب الحديث. ثم جاء المؤرخون فسلكوا في عرض الحوادث طريقتين أُولاهما وأقدمهما الترتيب على السنين بعد مُقدمة في التاريخ القديم يبدءونها عادة بذكر الطوفان أو الخليقة نفسها، ويظهر أن أول من صنف على هذا النمط الهيثم ابن عدي المتوفى عام ٢٠٧[٨٩]، ثم اتبعها من بعده الطبري وابن مسكويه وابن الأثير وأبو الفداء. والأُخرى سوق الحوادث مُساق القصة المنسوقة المرتبة على العهود، وقد جرى عليها اليعقوبي والدينوي والمسعودي وابن خلدون وغيرهم. ويتصل بعرض الحوادث أُسلوب أدائها وتصويرها: أما الأُسلوب فكان على وجه العموم عربيًا سهلًا مُبينًا؛ وأما التصوير فكان فيه وضوح وقوة وحياة كما في أخبار العقود الأُولى من تاريخ الطبري وفي بعض فصول ابن مسكويه والصولي.

ويُمكن تلخيص أوجه النقص في طريقتهم في أُمور ثلاثة: (١) ضعف ملكة النقد عندهم بوجه عام. (٢) إدارتهم التاريخ العام على الأفراد والحروب والسياسية في أبسط صورها. (٣) عدم عنايتهم بالشؤون العامة للجماعات وتعليل الحوادث والنفاذ إلى أسرارها.

على أنه مهما قيل في قصور طريقتهم من الناحية العلمية فحسبهم أنهم خلفوا للمؤرخ الحديث ثروة تاريخية طائلة يستطيع أن يتدارك في

---

(٨٩) الفهرست ص ١٤٦.

صياغتها ما فاتهم، وأن العلم الحديث يسجل لهم أنهم أول من ضبط الحوادث بالإِسناد والتوقيت الكامل، وأنهم مدوا حدود البحث التاريخي ونوعوا التأليف فيه وأكثروه إِلى درجة لم يلحق بهم فيها من تقدمهم أو عاصرهم من مُؤرخي الأُمم الأُخرى، وأنهم أول من كتب في فلسفة التاريخ والاجتماع وتاريخ التاريخ، وأنهم حرصوا على العمل جهد طاقتهم بأول واجب المؤرخ وآخره، وهو الصدق في القول والنزاهة في الحكم.

الفصل الرابع

إلمامه بالتاريخ والتأريخ من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر

حقيقة الأمر في نهضة الآداب القديمة – النهضة والتاريخ – مُؤرخو عصر النهضة في إيطاليا – مُؤرخو عصر النهضة في خارج إيطاليا – الفارق بين عُلماء النهضة في شمال أوربا وعُلمائها في إيطاليا – أثر الصراع الديني في إذكاء البحث التاريخي – أثر الكشوف الجغرافية الكُبرى والمشاكل الاجتماعية المترتبة عليها في توسيع نطاق البحث التاريخي – أثر الخصومات الدستورية في تنشيط البحث التاريخي – النزعة التعقلية والتاريخ في القرن الثامن عشر – التاريخ إبان الثورة الفرنسية وتأثره بفلسفة روسو – المذهب الإبداعي وخصائصه – أشهر المؤرخين إبان قيام المذهب الإبداعي.

كانت نهضة الآداب القديمة أقوى مُميز لفترة الانتقال من العصور الوُسطى إلى العصور الحديثة، ولم تكن في حقيقة أمرها إلا ثورة ثارتها على الكنيسة وثنية إيطالية طال حبسها وكتمانها. ثم هي من بعض الوجوه كانت حركة رجوع وتقهقر معناها العود إلى دراسة اللغات البائدة، وبعث الآداب المجفوة الدائرة، وإحياء ضروب من الفلسفة ابتدعها الخيال. وكانت تعني فوق كل ذلك هُوِيَّ الناس إلى مستويات أخلاقية واجتماعية أحط بشكل يرثى له من نظائرها التي بلغوها في عصور التدين والإيمان. ومع ذلك فلعل

تلك النهضة كانت مرحلة لا مناص للعقل الغربي من اجتيازها وهو في طريق التحرر من أغلاط الكنيسة التي ظل يرسف فيها (لمصلحة الكنيسة) مدى ألف عام، وإلا فليت شعري أي قوة غير قوة أفلاطون كان يُمكنها أن تبطل سحر أكويناس؟[٩٠]، وأي رجل غير يوليوس قيصر كان في وسعه أن يزعزع سلطان هيلدبرند[٩١]، وأي نفوذ دون نفوذ شيشرون[٩٢]، كان في طاقته أن يتحدى أغسطين في عليائه؟

أما في مجال التأريخ فنهضة الآداب القديمة كانت تعني أُمورًا كثيرة: كانت تعني أولًا صبغ التاريخ بالصبغة الزمنية، وتحول تدوين شؤون الدولة من رجال الدين إلى العلمانيين، والعدول عن الأساليب التأريخية على تفاوتها إلى كتابات من طراز يختلف عنها كل الاختلاف، كتابات يعزى فيها إلى حيل الدبلوماسيين المدبرة والاحتكام إلى السيف من حين لآخر ما كان يعزى من قبل إلى اعتراض المشيئة الإلهية حينًا وتدخل القديسين أحيانًا. وكانت من جهة ثانية تعني غلوًا في الحط من شأن العصور الوسيطة كأن لم تكن سوى عهود حرية مغلولة ولاتينية مرذولة، وهو غلو كان يُقابله غلو آخر في تمجيد عصور الأدب القديم كأن قد شهدت بلوغ كل ما يصبو إليه

---

[٩٠] **Thomas Aquinas** (حوالي١٢٢٥ – ١٢٧٤) فيلسوف ديني يُعد أكبر فلاسفة العصور الوُسطى ولا يُضارعه في التأثير في الكنيسة الغربية من ناحية التفكير الديني إلا أُغسطين.

[٩١] **Hildebrand** هو البابا جريجوري السابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥) وهو من أقوى الباباوات وأعظمهم شأنًا. كانت جهوده محصورة في رفع سلطة الكنيسة فوق السلطة الزمنية في العالم المسيحي كله، ومن جراء ذلك حدث بينه وبين هنري الرابع ملك ألمانيا النزاع التاريخي المشهور.

[٩٢] **Cicero** ١٠٦ – ٤٣ ق. م أخطب خُطباء الرومان، ومن أكبر ساستهم، وله مواقف خطابية وسياسية مشهودة في الحوادث والفتن التي وقعت في العهد الأخير من حياته.

العقل الإنساني. وكانت تعني من جهة ثالثة تقدمًا واسع المدى في أُسلوب الإنشاء الأدبي، وتهذيبًا لمفردات اللغة اللاتينية واحتذاء لغرر الأدب في العصر الأُغسطي[٩٣]، ربما اشتد فجعل الكاتب المتكلف للبلاغة عاجزًا عن التعبير عن الشيء الواضح بعبارة واضحة، وحتى عن أن يُؤدي إلى القارئ أي معنى مفهوم على الإطلاق. وكانت تعني من جهة رابعة بعثًا لمذهب التشاؤم الوثني القائل بالحركات الدورية في التاريخ (والمقابل للمذهب القائل بحركة واحدة مطردة مُؤدية من جنة الأرض إلى جنة السماء)، ورجوعًا إلى ما كانوا يتصورونه قبل النصرانية من حظ قلب وقضاء محتوم، وعودًا إلى الفردية وتوكيد قيم الأشخاص دون الجماعات، وهو من أظهر ما تمتاز به كُتب القدماء من المؤرخين أمثال تيوسيديد وفلوطرخ. وأخيرًا، وفوق كل شيء فإنها كانت تعني انبعاث روح نقاد جديد – بمعنى أن ما عُرِفَ عن الإغريق من ظمأ لا يروي إلى طلب المعرفة والبحث الحر قد عاد إلى الوجود ولكن في صورة جديدة.

فإنه عندما أثبت لورنزو فلا[٩٤] (١٤٠٦ – ١٤٥٧) بالدليل القاطع أن ما يُعرف «بمنحة قسطنطين» وهي من الأُسس التي تقوم عليها سلطة البابوات الزمنية، إنما هو تزوير قبيح افتعل في رومية نفسها في زمن

---

(٩٣) نسبة إلى أُغسطس أول أباطرة الرومان، والعصر المذكور يُعتبر أزهى عصور الأدب الروماني، فيه عاش فرجيل وهو رأس أكبر شُعراء الرومان، وليفي المؤرخ وصنيق الفيلسوف.

(٩٤) **Lorenzo Valla** من عُلماء النهضة في إيطاليا. وُلِدَ ونشأ في رومية ثم صار قسيسًا فكاتب سر ألفونس الخامس صاحب أرغونة، أشهر كُتبه كتابه المسمى (منحة قسطنطين) **Donation of Constantine** وقد حوكم بسببه أمام محكمة تفتيش وكاد يفقد حياته لولا تدخل ألفونس السادس، وهو بعد ناقد جريء وكاتب لذاع الأُسلوب وبعضهم يرى فيه ممهدًا للوثر.

يتأخر نحو خمسة قرون عن التاريخ الوارد بها، فقد أقام ذلك الدوائر الكهنوتية وأقعدها. أما رسائله المتعلقة بنص ترجمة الكتاب المقدس المعروفة بالفُلجات، والتي أقلقت بال رجال الكهنوت، ومقالاته الهادمة التي كتبها في نقد العقود الأُولى من تاريخ ليفي، فكانت أقل تأثيرًا وإن كانت أدل على قوة ملكة النقد عند فلا.

نورد على سبيل المثال من أعلام مُؤرخي عصر النهضة في إيطاليا إلى جانب لورنزو فَّلا: (١) ليونردو بروني[٩٥] (١٣٦٩ – ١٤٤٤)، ويُعتبر مُؤلفه «تاريخ فلورنسا في اثنى عشر كتابًا» أول مُؤلف هام يحوي كل الخصائص البارزة للمدرسة الحديثة، من صفة زمنية، وحب للقديم، وتعقل للأشياء، وعناية بالأفراد (٢) بودجو برتشوليني[٩٦] (١٣٨٠ – ١٤٩٥) وكان كاتب سر سبعة بابوات مُتتابعين. نتبين من كتابه «ثمانية كُتب في تاريخ فلورنسا» كيف كان التمسك بالأُسلوب اللاتيني يطمس المعنى الإيطالي. (٣) فلافيو بلوندي الشهير بفلافيوس بلندوس[٩٧] (١٣٨٨ – ١٤٦٣) وهو أعظم عُلماء عصر النهضة. كتب عِدة تآليف في آثار الرومان، كما كتب واحدًا وثلاثين كتابًا في تاريخ النصرانية ابتداء من سقوط الدولة الرومانية، وقد أصبحت هذه الكُتب أساسًا لكل ما كتب بعد في موضوعها. (٤) إينياس سلفيوس بيكولوميني[٩٨] وهو الذي صار

---

[٩٥] Leonardo Bruni.

[٩٦] Poggio Bracciolini.

[٩٧] سبق التعريف به في ص ٤١.

[٩٨] Ageneas Sylvius Piccolomini أو Pope Pius II

بعد البابا بيوس الثاني (١٤٠٥ – ١٤٦٤) وقد أفاده علمه الفذ بالسياسة وخبرته التي اكتسبها في سياحته الواسعة النطاق في وصف ألمانيا على عهد فردريك الثالث، وبوهيميا إبان الحروب الهُسِّيَّة[99]. ولكن أسمى من كل من ذكرنا، وأصدق تمثيلًا لمؤرخي عصر النهضة، الكاتبان الفلورنسيان العظيمان المتحرران من جميع القيود (٥) نيكولو مكيافلي[100] (١٤٦٩ – ١٥٢٧) و(٦) فرنسسكو جويشيرديني[101] (١٤٨٣ – ١٥٤٠) فإنهما بوثنيتهما المحضة، واحتقارهما للعصور الوُسطى، ومقتهما للبابوية، وانغماسهما في لجة السياسة، وإخلاصهما لوطنهما، وبراعتهما في القصص، يُمثلان منتهى ما وصل إليه التأريخ زمن النهضة.

---

(٩٩) **The Hussite Wars**، كان مذهب المصلح الديني الإنجليزي ويكليف قد تأدى إلى ألمانيا ودعا إليه فيها أُستاذ بجامعة براغ اسمه جون هس، لكن مجمع كونستانس قضى بفساد المذهب المذكور وحوكم هس وأعدم إحراقًا بالنار (١٤١٥) فثار أتباعه في بوهيميا ثورة عنيفة فحوربوا وأبيد المتطرفون منهم وصولح المعتدلون آخر الأمر (١٤٣٣).

(١٠٠) **Niccolo Machiavelli** (١٤٦٩ – ١٥٢٧) سياسي وكاتب إيطالي، وُلِدَ وعاش في فلورنسا، وقد تقلب في كثير من المناصب السياسية والعسكرية في فلورنسا، وساح في أُوربا، واكتسب خبرة واسعة بسياسة الجمهوريات الإيطالية وأوربا لعهده وكانت تنطوي على كثير من أساليب الدس والاستهانة بالحقوق الدولية، ثم صاغ خلاصة تجاربه في كتابه (الأمير) **Il Principe** وقد رسم فيه كيف يستطيع أمير مُستبد قوي جريء أن يُوحد إيطاليا ويجعل منها دولة عظيمة. وخلاصة فلسفته السياسية أن: الغاية تُبرر الواسطة، وقد تأثر بفلسفته ساسة أُوربا الحديثة بوجه عام.

(١٠١) **Francesco Guicciardini** سياسي ومُؤرخ إيطالي تتضح سياسته في بغضه للبابوية وولائه لآل مديسي. وقد انصرف في أواخر حياته إلى كتابة تاريخ لإيطاليا من عام ١٤٩٤ إلى عام ١٥٣٢، وقد ظهرت كفايته كمؤرخ مُستقل وناقد قدير في ذلك التاريخ الذي يُعد من أعظم ما كتب في التاريخ الحديث.

أما في خارج إيطاليا، فإن حركة النهضة جعلت تنتشر ويمتد رواقها شيئًا فشيئًا حتى كان أغلب ممالك أوربا قد شهد قبل انتصاف القرن السادس عشر مؤرخين من الطراز الجديد، من بين مُتظاهر بالدين مثل بيكولوميني، أو مجاهر بالوثنية مثل ماكيافلي. ونكتفي في هذا المقام بذكر بعضهم على سبيل المثال، فمن أقدمهم وأفضلهم بوليدور فرجيل[١٠٢] (١٤٧٠ – ١٥٥٥)، وهو إيطالي من رجال الكنيسة، أقام في إنجلترا وكتب بها «تاريخ إنجلترا على عهد هنري السابع»، الذي ظل نموذجًا لكل من جاء بعده من مُؤرخي الإنجليز. يليه في الترتيب الزمني يواقيم فون وط السويسري الشهير بفاديانوس[١٠٣] (١٤٨٤ – ١٥٥١)، وقد أظهر في كتابه «التأريخ الكبير لرؤساء دير سنت غالِن»[١٠٤] من البراعة في نقد المصادر والنظر الفلسفي العميق، والاقتدار على العرض الأدبي، ما أحله بين مُؤرخي زمانه مكانًا عاليًا. ويكاد يُعاصر فاديانوس مُعاصرة تامة بيتس رينانوس الألماني[١٠٥] (١٤٨٦ – ١٥٤٧)، وهو الذي استخدم في بحث مصادر التاريخ التيوتوني القديم نفس قواعد التفسير الناقد التي طبقها صديقه إرزمس[١٠٦] في دراسة نصوص العهد الجديد وسجلات الكنيسة.

---

(١٠٢) Polydore Virgil.

(١٠٣) Joachin Von Watt: Vadianus.

(١٠٤) Grosse Chronik der Aebte Von Sankt Gallen ودير سنت غالن دير سويسري كان في العصور الوسطى من مراكز العلم والتعليم الشهيرة. وحوالي عام ٩٥٤ أُحيطت مبانيه بأسوار تقيها غزوات العرب فكان ذلك بدء تحوله إلى مدينة سنت غالن الحاضرة.

(١٠٥) Beatus Rhenanus.

(١٠٦) Erasnius

بل إن أسبانيا نفسها تأدى إليها تيار النهضة، فإن دييجوده مندوزا[١٠٧] (١٥٠٣ – ١٥٧٥) مُؤرخ الفتح القشتالي لغرناطة، تعلم من الإيطاليين على كثرة صلاحه كيف يُناقش المصادر قبل الشروع في الكتابة.

أما اسكتلنده فقد أجاد تمثيل النهضة فيها جورج بوكنان[١٠٨] (١٥٠٦ – ١٥٨٢)، وكان ضليعًا من اللاتينية الفصحى بحيث كان في وسعه أن يقص بها قصصًا في منتهى الوضوح والقوة. إلا أن ملكة النقد عنده كانت دون ملكة الأدب، فقد حشا كتابه «» يذكر خرافات ومعجزات تعد من سقط المتاع. أما فرنسا فتأخر وصولي النهضة إليها تأخرًا يدعو إلى العجب؛ فحتى الوقت الذي كان يعمل فيه يوسف اسكاليجر (١٥٤٠ – ١٦٠٩) في كتابه على التوفيق بين تأريخ أوزبيوس ووقائع التاريخ الزمني الثابتة، لم يكن ظهر بعد في ملك آل فالوا رجل خليق بأن ينعت بالعلم بالآداب القديمة. زد على ذلك أن اسكاليجر كان في أواخر أيامه أشد اتصالًا بالأراضي الوطيئة منه بفرنسا. ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المقام أنه عندما كان أُستاذًا بجامعة ليدن، كان من بين تلاميذه فتى اسمه هوجوجروشيوس[١٠٩] (١٥٨٣ – ١٦٤٥) لمع نجمه بعد وكان أنضر زهرة أخرجتها النهضة في الأراضي الوطيئة.

---

(١٠٧) **Diego de Mendoza**

(١٠٨) **George Buchanan**

(١٠٩) **Hugo Grotius** (١٥٨٣ – ١٦٤٥) كاتب وفقيه وسياسي هولندي كبير. امتاز باعتداله في أمور الخلاف الديني، وحاول التوفيق في بعض كتبه بين الكثلكة والبروتستنتية. كان واسع الفكر ذهب إلى

على أن عُلماء النهضة أمثال بكونان، واسكاليجر وجروشيوس، إنما كانوا رجالًا من طراز يختلف جد الاختلاف عن عُلماء إيطاليا النزاعين إلى الوثنية والمؤثرين للآداب القديمة. كانوا رجال إصلاح ديني، لا رجال نهضة أدبية، كانوا نصارى من صنف جديد غريب لا أفلاطونيين محدثين، كانوا عبرانيين بل فلسطينيين لاهيلينيين أو شيشرونيين(١١٠). ولقد عثر الإيطاليون من عُلماء النهضة، وهم ينقبون عن النصوص القديمة، على الترجمة اليونانية للعهد الجديد، فلما درسوا ذلك المستند الثوري العجيب تبين لهم أن الترجمة اللاتينية للعهد الجديد المعروفة بالفلجات تشتمل على تحريف لعقائد المسيح والرسل رديء جدًا، وأظهرت تلك الترجمة فوق ذلك حقيقة أُخرى هي أن الكنيسة الكاثوليكية كانت على عهد بابوات القرن الخامس عشر تختلف اختلافًا شديدًا من حيث النظام عن كنيسة إنجيلي القرن الأول. لقد وقف علماء إيطاليا على ذلك فلم يكترثوا له بل هزوا رؤوسهم ومضوا في طريقهم. ذلك بأن يونانية العهد الجديد كانت تختلف عن يونانية عصر بريكليس إلى حد أنهم خافوا أن تفسد عليهم أُسلوبهم إذا هم تعمقوا في دراستها. ولقد بلغ الأمر بالكردينال بمبو(١١١) أن حذر أصحابه قراءة رسائل بولس الرسول لذلك الغرض عينه! أما في

تبرير مبدإ حرية البحار في كتابه **Mare Liberum** وإلى وجود قانون طبيعي يحكم شؤون الناس وذلك في كتابه **De Jure belli et pacis**.

(١١٠) «العبرانيون» هنا على ما أخبرني به زميلي الأُستاذ يوسف شخت طائفة من العُلماء كانت تضع دراسة اللغة العبرية في الدرجة الأُولى من الأهمية وتستمد منها تكوينها العقلي. أما «الفلسطينيون» فمجرد تعبير عن المبالغة في التمسك بالرأي المذكور. والمعنى العام أن علماء النهضة في شمال أوربا كانوا يُؤثرون الرجوع إلى العبرية، في حين أن عُلماء إيطاليا كانوا يُؤثرون اليونانية واللاتينية.

(١١١) **Cardinal Pembo**

شمالي جبال الألب فكان الأمر على خلاف ذلك. لقد كانت معاني العهد الجديد دون ألفاظه صاحبة الاعتبار الأول عند ذوي التعقل والجد من عُلماء ألمانيا وسويسرا والأراضي الوطيئة. وكذلك كان الشأن عندهم بإزاء العهد العبري القديم الذي اتجهوا إلى دراسته عقب فراغهم من العهد الجديد. لذلك كانت النهضة في الأقطار المذكورة عبارة عن اتجاه القوم إلى النصرانية الأُولى بدلًا من اتجاههم إلى الدراسات القديمة. ومما شد أزرها رغبة أهل الشمال في التحرر من النير اللاتيني والفرار مما كان يأخذهم به البلاط البابوي من تكاليف فادحة مُتزايدة. تلك الحركة المركبة التي كانت أخلاقية عقلية من جهة، وجنسية سياسية من جهة أُخرى، قد بلغت الغاية في ألمانيا في عام ١٥١٧ إذ قام راهب أُغسطيني وأُستاذ بجامعة فتنبرج[١١٢]، فدعا من جديد إلى مذهب بولس الرسول القائل بكفاية الإيمان وحده، وتحدي كل النظام البابوي بما اشتمل عليه من مواثيق، وفتاوي، وكفارات وبراءات بغفران الذنوب والخطايا.

لا يسعنا في هذا المقام أن نعيد الكلام على النزاع الخطير الذي نشأ عن حركة الإصلاح الديني، ولا أن نقص من جديد تلك القصة الفظيعة التي تُعرف بقصة الحروب الدينية؛ وحسبنا أن نشير إلى أن النصرانية من أجل ذلك النزاع وتلك الحروب انقسمت على نفسها أبد الدهر، وأن نار العداوة والبغضاء اضطرمت بوحشية لم تعهد مُنذ عهود المسيحية الأُولى، أيام كانت الوثنية والنصرانية تتغالبان أيتهما يكتب لها إنقاذ رومية

---

[١١٢] هو مارتن لوثر (١٤٨٣ – ١٥٤٦) المصلح الديني الألماني المشهور.

وهدايتها، وأن النصرانية غدت كسابقتها اليهودية ووليدتها الإسلامية[١١٣]، وعلى غير المعهود في أكثر ديانات العالم الأُخرى العظيمة، ديانة تاريخية، بمعنى أنها تقرر أن أُصولها عبارة عن وقائع أصلية صحيحة مُسلم بحدوثها في زمان ومكان معينين. ثم هي ليست تاريخية من حيث أُصولها فحسب، بل هي كذلك لأنها ذاعت ونمت تبعًا لعوامل تاريخية أو تطورية. وبذلك أصبح التاريخ مرجع الناس يستمدون منه أقتل القذائف وأفتك المدمرات في المجادلات التي ثارت بين لوثر والبابا، وبين البروتستنت والكاثوليك؛ وبين الفرق العديدة التي سرعان ما ظهرت في الكنيسة المنحلة. ومن ثم توافرت دواعٍ قوية تدعو إلى البحث التاريخي. نعم إن البحث لم يكن نزيهًا بالمرة؛ فقد تناوله كلا الفريقين لنشر الدعاية المذهبية لا لغرض الوصول إلى الحقيقة العلمية.

ومع ذلك لم يخل الأمر من الخير، فكما أن التسامح الديني جاء نتيجة محتومة، وإن تكن غير مقصودة، للحروب غير الفاصلة التي وقعت بين الكاثوليك والبروتستنت، فكذلك جاءت الحقيقة التاريخية نتيجة غير مُباشرة لتصادم الدعايتين المتنافستين الكاثوليكية والبروتستنتية. إن الناس لم يشهدوا قط تهالكًا على نبش أكداس التاريخ الكنسي المهجور كالذي شهدوه أيامئذ، ولم تبلغ قط طريقة البحث التاريخي من القوة والتأثير ما بلغته إذ ذاك. لقد اقترحت شرارة الحقيقة التاريخية من وقع مضارب الفولاذ البروتستنتي على صفاة الجمود الكاثوليكي.

---

[١١٣] هكذا يرى المؤلف الإسلام.

كان كتاب «سِيَربابوات رومية»(١١٤) (١٥٣٦) لروبرت بارنز(١١٥) و«كتاب الشهداء» (١٥٥٤) لجون فوكس(١١٦) مجرد مناوشات مبدئية لمعركة البروتستنتية والكثلكة ظهرت في شكل سير للبابوات والشهداء. أما هجوم عامة الجيش البروتستنتي على قلعة الكثلكة فيتمثل في الكتاب المسمى «قرون مجدبرج»(١١٧) وهو مُؤلف عظيم طبع لأول مرة بمدينة بال في سني (١٥٥٩ – ١٥٧٤) بعنوان «تاريخ الكنيسة النصرانية»(١١٨) وفيه يسرد تاريخ الكنيسة النصرانية قرنًا قرنًا مُنذ أسست إلى عام ١٤٠٠ (ومن ثم اسمه الذي عُرِفَ وطُبِعَ به ابتداء من عام ١٧٥٧). وقد تناول الكلام على الكنيسة كما صورتها أعمال الرسل في صورة مثال سماوي مشروع للنظام والعقيدة، ثم صور تاريخ الكنيسة في الأربعة عشر قرنًا التي أعقبت ذلك من حيث هو سيرة فساد واضمحلال سريعين مطردين. لقد صدم ذلك الكتاب نصرانية كانت آمنة راضية، إلا أن ذلك لم يخل من بعض الخير لها، فقد أدلى بطائفة من المعلومات الصحيحة عن المجامع والبابوات كانت تفتقر إلى كثير من الجهد في توضيحها وجلاء غامضها. لا شك أن كتاب «قرون مجد برج» لماتياس فلاسخ (فلاكسيوس) (١١٩) وأعوانه

---

(١١٤) Vitoe Romanorum Pontificum.

(١١٥) Robert Barnes (١٤٩٥ – ١٥٤٠) من رجال الإصلاح الديني في إنجلترا: أحرق بالنار في عام ١٥٤٠ لتمسكه بآرائه البروتستنتية.

(١١٦) John Foxe (١٥١٦ – ١٦٨٧) هو أيضًا من رجال الإصلاح الديني في إنجلترا اشتهر بكتابه Book of Martyrs وقد ضمنه أخبار من استشهدوا من أجل اعتقادهم.

(١١٧) Magdeburg Centuries.

(١١٨) Historia Ecclesiae Christi.

(١١٩) Matthias Flacius (١٥٢٠ – ١٥٧٥) مُصلح ديني من أتباع لوثر. درس العبرية واللاهوت في جامعتي فيتنبرج وبينا، ويُعتبر من السابقين إلى درس التاريخ الكنسي دراسة علمية.

كان فاتحة لدراسة التاريخ الكنسي الحديث القائم على الفهم والتعقل. وقد اقتضى ما ينطوي عليه من تحد أن يرد عليه الكردينال قيصر باورنيوس[١٢٠] بكتاب اسمه (الحوليات). كان بارونيوس قيم مكتبة الفاتكيان، فكانت تحت يده مجموعة وثائق العصور الوسطى الفريدة التي كانت ولا تزال في ذلك المستود التاريخي العظيم الذي لم يكن استغل بعد في الشؤون التاريخية. لذلك استطاع بارونيوس أن يعرض على الجمهور المثقف أكداسًا من المعلومات الجديدة، وأن ينقض بصفة نهائية كثيرًا مما قرره «كتاب القرون». على أن بارونيوس تجاوز القصد، وأضر بالقضية التي انتدب للدفاع عنها ضررًا بليغًا؛ وذلك لمبالغته في عدم تحري الحق وركوبه في الجدل متن الشطط والمجازفة. لقد طبعت «حوليات الكنيسة» في رومية في سني ١٥٨٨ – ١٦٠٧، وإن ما اشتملت عليه من خطأ كثير، وتنكب للحقيقة صارخ، وإيحاءات كاذبة لم يقم عليها دليل، كل ذلك جعلها فريسة لنقدات هتاكة فتاكة قام بها عالمان من عُلماء النهضة كمبيران بروتستنتيان هما يوسف سكاليجر[١٢١] وإسحق كزوبون[١٢٢]، وبذلك امتدت أسباب ذلك الجدال الكبير.

---

(١٢٠) **Caesar Baronius** (١٥٣٨ – ١٦٠٧) من مُؤرخي الكنيسة اللاتينية. وما ذكره المؤلف عنه كاف في الدلالة على مكانته العلمية.

(١٢١) **J.J. Scaliger** (١٥٤٠ – ١٦٠٩) عالم إيطالي الأصل وإن كان قد وُلِدَ وتعلم في فرنسا، عُين أُستاذًا في أكاديمية جنيف ثم في جامعة ليدن، وهو من أكبر عُلماء زمانه وخاصة من حيث النقد التاريخي، فهو أول من وضع قواعد لنقد وضبط النصوص التاريخية؛ وأول من نبه على أن التاريخ القديم ليس عبارة عن اليونان والرومان فحسب، بل إن الدرس المقارن لتاريخ أُمم الشرق القديم وطرق التوقيت عندها ضروري للوصول إلى نتائج عامة مقررة. وقد نشر بحوثه المتعلقة بذلك في كتاب سماه **De emendation temporum**.

(١٢٢) **Isaac Casaubon** (١٥٥٩ – ١٦١٤) عالم كبير إنجليزي الأصل متجنس بالجنسية الفرنسية، تولى الأُستاذية بجامعتي جنيف ومونبلييه فوكالة المكتبة الملكية بباريس. ثم انتقل إلى إنجلترا بدعوة من ملكها جيمس الأول وأقام بها حتى وفاته، نشر كثيرًا من المراجع اللاتينية القديمة وعلق عليها تعليقات ضافية قيمة، ونشر كذلك نقدًا لحوليات بارونيوس. وقد ترك مُذكراته اليومية وهي خير ما يُصور الحياة اليومية لرجل العلم في القرن السادس عشر.

ثم جاء القرنان السادس عشر والسابع عشر، فشهدا بواعث أُخرى عدا اللاهوت شجعت على دراسة التاريخ. في مقدمة هذه البواعث ترتيبًا وأهمية ما كان منها آتيًا من قبل الأقطار التي انتهت بفتحها رحلات الاستطلاع والاستكشاف الكُبرى المعتبرة أبرز خصائص ذلك الزمان. لقد اتصلت حضارة أوربا النصرانية في المكسيك وبيرو وبرنيو وجزائر البهار وجنوب إفريقية وجزائر المحيط الهادي، بمدنيات أو جاهليات مباينة بالمرة لنظائرها في حوض البحر الأبيض المتوسط، ولكنها في الوقت نفسه كانت جليلة القدر بما لها من قدم العهد، فاتنة لما بها من جاذبية الشيء الجديد المستطرف، فكان ذلك حافزًا لخيال المؤرخين، موسعًا لنطاق البحث التاريخي، إذ حل البحث عن العادات والآداب والعقائد والنُظم السياسية والاجتماعية محل ما شهدته العصور الوسطى الرواكد من حوليات وتآريخ رتيبة مُتشابهة. ولقد كان مُعظم مُتقدمي الطبقة الجديدة من المؤرخين الاجتماعيين أصلًا وبطبيعة الحال من الأسبان. فمن أعلامهم جنزالوده أفيدو[١٢٣] (١٤٧٨ – ١٥٧٠) وبروتولومي ده لاس كازاس[١٢٤] (١٤٧٤ – ١٥٦٦). وفرانسيسكو ده جمارا[١٢٥] (حوالي ١٥١٢ – ١٥٧٠) وأنطونيو ده هريرا[١٢٦] (١٥٤٩ – ١٦٢٥). وثم باعث آخر وثيق الاتصال بالباعث المتقدم الذكر هو التغيير الذي طرأ على الأحوال الاقتصادية بسبب كشف العالم الجديد. فالاستعمار والإتجار وراء البحار، والرأسمالية، والصناعة الغير مُنظمة ونظام الزراعة الإقطاعية المنحل، كل ذلك نشأ عنه ثوران اجتماعي حمل كثيرًا من العمال التعساء الذين اضطربت حالهم

---

(١٢٣) Gonzalo de Oiedo.

(١٢٤) Bartolome de Las Casas.

(١٢٥) Francisco de Gomara.

(١٢٦) Antonio de Herrera.

على البحث في أصول ومسوغات الشرائع والحكومات التي سببت شقاءهم. ففي إنجلترا حيث ساءت سمعة الفتح النرمندي وتناقل الناس أنه كان السبب في أكثر المصائب التي انتابت فلاحي القرن السابع عشر، كان من هم المهيجين أمثال إفررد[١٢٧] وونستنلي[١٢٨] أن يستوفوا البحث عن حقيقة الفتح النرمندي ماذا كانت بالدقة.

وأبلغ في بعث نشاط المؤرخين من الاستكشافات الجغرافية والتحول الاجتماعي تلك الخصومات الدستورية التي امتاز بها القرن الممتد من عام ١٥٥٠ إلى عام ١٦٥٠ ونخص منها بكلامنا ثلاثًا كُن ذوات أهمية عُظمى فيما نحن بصدده.

(١) جهاد الأراضي المنخفضة الهولندية من اجل الاحتفاظ بحقها القديم في الحكم الذاتي والاستقلال الإقليمي عن مركزية فيليب ملك أسبانيا المتحيفة الباغية؛ فقد اقتضى الجدل الذي تقدم ذلك الجهاد بحثًا عميقًا في محفوظات العصور البرغندية وحتى محفوظات العصور الكارولنجية.

(٢) النزاع الذي ثار في فرنسا بين الملك وبين طبقة النُبلاء الإقطاعيين، وهو نزاع دقيق توقف الأمر فيه على نتائج البحث التاريخي، فإن طائفة من الكُتب المشتركة بين الفقه والتاريخ – من أحسنها كتاب فرنكو غاليا (١٥٧٤) لهوتمان[١٢٩] – عرضت على الناس الأصول الكابتية[١٣٠] للملكية الفرنسية وانتصرت لقضية الحُكم الدستوري.

---

(١٢٧) Everard.

(١٢٨) Winstanley.

(١٢٩) Hotman.

(١٣٠) نسبة إلى أُسرة كابت القديمة التي تملكت على فرنسا من عام ٩٨٧ إلى عام ١٣٢٨.

(٣) ولكن أهم من النزاعين المذكورين وأبعد أثرًا ذلك الخصام الألد الذي ثار في إنجلترا في أوائل القرن السابع عشر بين ملوك آل استيورت وبرلماناتهم. كان كلا الفريقين المتنازعين يرجع إلى السوابق القديمة يستظهر بها. فالملوك كانوا يحتجون بأنهم إنما يُطالبون بامتيازات ثبتت لإصابات وهنري الثامن بدون نزاع، وباشرهما كليهما من غير أن يلقي عليها اعتراضًا. وكانت البرلمانات من ناحيتها تحتج بِأَنَّها إنما تُطالب بامتيازات وتدعي حقوقًا أقرها واعتمدها هنري السادس على أكمل الوجوه وأصحها. وأقبل المشتغلون بالشؤون القديمة من الفريقين يستثيرون دفائن الوثائق الرسمية العتيقة، ويدرسون القوانين القديمة المهملة، ويجمعون كل سابقة لها صلة بموضوع النزاع. فأما أنصار الملك، ولا سيما وكيله العمومي نوي[١٣١]، فكانوا مُوفقين غاية التوفيق إذ وقفوا على ما لا يحصي كثرة من الحيل الخسيسة والأساليب المعنتة التي كان يجبي بها ملوك العصور الوسطى الأموال من رعاياهم المانعين لها. وأما كبار مُحامي البرلمانيين، أمثال كوك، وسلدن، وسليمان، وسنت جون[١٣٢]، فإنهم من ناحيتهم أمدوا تأريخ الدستور الإنجليزي وتأريخ تطوره بمدد خالد باق على الزمن بِأَن نشروا على الناس الأُسس التي تقوم عليها حريات الشعب. وأغنى الجدل الذي ثار بين شارل الأول وجون همبدن[١٣٣] في نمو دراسة التأريخ في إنجلترا غناء الجدال الذي ثار بين البابا ليو العاشر وبين لوثر في نمو دراسة التاريخ في ألمانيا. وهُنا أيضًا نجد أنه بد أن ركدت عجاجة المعركة، قد برزت الحقيقة التاريخية حرة طليقة وسط الصغين المقتتلين المجهودين من غير تحيز لواحد منهما.

---

(١٣١) **Noy**.

(١٣٢) **Coke; Selden: Spelan: St. John**.

(١٣٣) **John Hampden**

وأيًّا ما كانت الحال فإن الخصومات الدينية والسياسية لم تسكن ثائرتها في أوربا إلا بعد زمن طويل، ذلك بأن تشكك الناس في المسائل الدينية والركود الذي عرا الشؤون السياسية، لم يأذنا للناس بقدر كاف من الطمأنينة يجعل التاريخ يعود فيثبت أنه علم وليس بأداة حرب إلا بعد أن تصرم من القرن الثامن عشر مقدار غير قليل، وكان أول من نادى في القرن الثامن عشر بوجوب نقل التاريخ من ميدان الحرب إلى مجلس الدرس هو ذلك الرجل العجيب الشأن جيوفني باتتستافيكو[١٣٤] (١٦٦٨ – ١٧٤٤) الذي ظهر مُؤلفه العظيم «أصول علم جديد» في عام ١٧٢٥، لقد اعتبر فيكو التاريخ في هذه الرسالة الجامعة فرعًا من علم واسع شامل لشؤون المجتمع الإنساني، وذهب إلى أن منهج بحثه يقوم على أصول منطقية دقيقة، ونظر إلى كل عصر من عصوره على أن له مكانًا خاصًا من نظام تطوري، وتناول مجرى الحوادث من حيث هو دوري ومطرد معًا، وترك الفكرة العامة القائلة بأن الأمور تجري بخطة دبرها مدبر حكيم لاستنتاج القارئ واستنباطه، أما من حيث الفائدة التي عادت على فلسفة التاريخ من الكتاب المذكور فحسبنا أن نقول إنه يعتبر في مقدمة ما كتب في هذا الموضوع في القرن الثامن عشر، على أنه لم يكن في طاقة فيكو أن يدرس التاريخ دراسة عملية مؤسسة على الإدراك الصحيح والأصول العلمية، ذلك أنه لم يكن أصلًا من المؤرخين وإنما كان من رجال القانون، فكان عليه أن

---

(١٣٤) Giovanni Battista Vico (١٦٦٨ – ١٧٤٤) فقيه وفيلسوف إيطالي وُلِدَ وعاش في نابلي. درس الآداب القديمة وخاصة أفلاطون وجروشيوس: الأول لتصويره الإنسان المثالي والآخر لتصويره الإنسان كما هو في الواقع. وقد تأثر فيكو بفرنسيس باكون وجروشيوس فبعثه الأول على دراسة بعض كبريات مسائل التاريخ والفلسفة، وبعثه الآخر على درس فلسفة القانون. وقد صاغ فيكو خلاصة دراسته في كتابه المذكور في المتن.

يدع لغيره تطبيق مبادئه، ولقد دل مونتسكيو[١٣٥] (١٦٨٩ – ١٧٥٥) على أنه أسبق وأعظم من حاولوا الاضطلاع بتلك المهمة، فإلى أي حد كان مونتسكيو تلميذًا لفيكو، وتابعًا له بتبعيته له؟ ذلك موضوع كثر فيه الخلاف، لقد عثروا في خزانة كتبه على نسخة من كتاب فيكو، ولكن لم يقم دليل مباشر على أنه قرأها قط، فإذا صح ذلك فإنه يكون قد طبق مبادئ فيكو أعجب تطبيق مما أدلى به في مؤلفاته «رسائل فارسية» و«عظمة الرومان واضمحلالهم» و«روح القوانين» من عرض واسع المدى لوقائع التاريخ والسياسة، لقد درس مونتسكيو في المؤلفات المذكورة، مع التجرد الهادئ الذي يوصف به العلم الطبيعي، تطور الشعبين الإنجليزي والفرنسي الدستوري وأحوالهما القائمة لعهده، ووازن بينهما، ثم قابل بينهما جميعًا وبين نظائرهما عند الرومان وعند كل أمة أخرى قديمة ذات تاريخ مسطور، ولقد أسدى إلى ما لعله يكون علمًا للاجتماع فائدة باقية على الزمان بتوكيده ما بين الأجواء والنظم والآراء من وجوه الاتصال، وأشد من مونتسكيو هدمًا بالنقد الشكاك ومجاهرة بعدم الاكتراث المطلق، فرنسوا ماري أرويه الشهير بفولتير[١٣٦] (١٦٩٤ –

---

[١٣٥] Montesquieu (١٦٨٩ – ١٧٥٥) مؤرخ فلسفي فرنسي كبير، ولد بالقرب من بردو، وتعلم في بردو وطاف ممالك أوروبا، فلما ظهر علمه صار عضوًا بالأكاديمية بعد معارضات متكررة، اشتهر في «الرسائل الفارسية» التيكتبها على لسان سائحين فارسيين خياليين بدعابته اللاذعة ونقده القاسي لمناحي الحياة الفرنسية العامة لعهده، أما كتاباه «عظمة الرومان واضمحلالهم» و«روح القوانين» فيمتازان ببلاغة الأسلوب وعمق الفكرة وصحة الحكم، وقد أثنى فولتير على الكتاب الثاني برغم عداوته لمونتسكيو.

[١٣٦] Francois Marie Arouet, Voltaire (١٦٩٤ – ١٧٧٨) هو الشاعر الناثر البليغ الفرنسي المشهور ذو العقل الجبار والنفس الساخرة الهازئة والنشاط الأدبي المنقطع النظير، ولد في باريس، وزار إنجلترا وبروسيا بدعوة من فردريك الكبير، وقد قضى معظم حياته بفرناي قريبًا من جنيف، كتب عدة روايات تمثيلية ونظم غير ملحمة؛ كما كتب في التاريخ والقصص والفلسفة، وكان في معظم ما كتب قويًا مبرزًا، وقد أثرت تآليفه في الحياة الأوربية الاجتماعية والأدبية أبلغ التأثير.

١٧٧٨)، فكتابه «تاريخ شارل الثاني عشر» (١٧٣١) عبارة عن عرض بارع مستنير لسيرة ذلك الملك السويدي المغوار الذي أشبهت حياته حياة الشهب شدة ائتلاف وسرعة هُوِيّ، وكتابه «عصر لويس الرابع عشر» (١٧٥١) لم يتقيد فيه بالترتيب الزمني الدقيق، بل نفذ إلى صميم عناصر القوة والضعف في فرنسا على عهد «الملك المنير»[١٣٧]، وكتابه «مقالة في الآداب» (١٧٥٦) يعتبر أول محاولة صادقة لوضع تاريخ عام للثقافة، وقد اشتهر باعتراف فولتير فيه بفضل العرب على الحضارة المسيحية، وبتناوله الكلام على الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية، وبإعراضه التام عن كل ما غلب على التأريخ من أيام هيروشيوس إلى وقته من تعليل الحوادث بعلل سماوية، ولقد أثر فولتير بنزعته التعقلية وروحه الفياض في المنشآت التاريخية التي أنشأها ديفيدهيوم[١٣٨] (١٧١١ – ١٧٧٦)، ووليم روبرتسون[١٣٩] (١٧٢١ – ١٧٩٣)، وميشيل شميت[١٤٠] (١٧٣٦ – ١٧٩٤)، وإدورد جبون[١٤١] (١٧٣٧ – ١٧٩٤)، وأرنولد هيرن[١٤٢] (١٧٦٠ – ١٨٤٢)، وكل أولئك

---

(١٣٧) هو لويس الرابع عشر.

(١٣٨) **David Hume** (١٧١١ – ١٧٧٦) فيلسوف ومؤرخ واقتصادي بريطاني كبير، كتب في المعرفة والإلهيات، والأخلاق والتاريخ والاقتصاديات كتابات لا يزال بعضها مرجعًا للباحثين في هذه العلوم.

(١٣٩) **William Robertson** (١٧٢١ – ١٨٩٣) مؤرخ أسكتلندي، ترجم كتابه «تاريخ عهد الإمبراطور شارل الخامس» إلى كثير من اللغات الأوروبية.

(١٤٠) **Michael Schmidt** مؤرخ ألماني كتب تاريخًا للأمة الألمانية قديمًا ولكنه توفي قبل تمامه.

(١٤١) **Edward Gibbon** (١٧٣٧ – ١٧٩٤) مؤرخ إنجليزي كبير كتب تاريخ «اضمحلال وسقوط الدولة الرومانية» ولا تزال لكتابه هذا قيمة أدبية وعلمية، وقد طبع حديثًا بتحقيق الأستاذ بيوري.

(١٤٢) **Arnold Heeren** (١٧٦٠ – ١٨٤٢) مؤرخ وأستاذ ألماني امتاز بدراسة التاريخ القديم دراسة قائمة على معرفة الأحوال الاقتصادية وبذلك يعتبر من السابقين إلى القول بـ «التفسير الاقتصادي للتاريخ».

يتفق قليلًا أو كثيرًا مع بولنجبروك في القول بأن التاريخ تعليم للفلسفة بضرب الأمثال، إلا أنهم مه نبذهم فلسفة التاريخ التي شاعت من أيام أوغسطين إلى بوسيويه[١٤٣] لم يدركوا على الإطلاق ما ينبغي أن يعلِّمه التاريخ ولا الذي كان يعلِّمه بالفعل؛ أما من حيث منهج البحث، فإنهم جميعًا، وإن كانوا قد حاموا حول تمحيص المصادر الأصلية ونقدها، كانوا أميل إلى الشروع في الكتابة قبل تمام التمكن من المصادر، وفوق ذلك فإنهم، شيئًا بعد شيء، ومع التنبيه على استثناء هيرن، مدوا نطاق بحوثهم إلى خارج دائرة الدين والسياسة المحدودة، أما هيرن فيعتبر من هذه الناحية مبرزًا على سائر من ذكرنا وسباقًا.

وبينا هذه العصبة الممتازة من المؤرخين التعقليين عاكفة على عملها، إذا بالثورة الفرنسية يندلع لهيبها (١٧٨٩)، فتصد تيار علم التاريخ عن وجهته وتحوله إلى وجهة أخرى كما فعلت بأكثر ما عداه من الشؤون، في ذلك الوقت كان لفيف من ناشئة المؤرخين، وبخاصة في ألمانيا، يكتب بأسلوب فيه روعة تحت تأثير روسو[١٤٤] الذي كان من شأنه الانسياق مع العاطفة والعمل على قلب الأوضاع رأسًا على عقب، وقد ظهر من كتاباتهم أنها بداية رد فعل لمذهب التعقل الجاف البادي في كتابات فولتير ومدرسته، نذكر من هؤلاء المؤرخين

---

(١٤٣) **Bossuet** (١٦٢٧ – ١٧٠٤) عالم ديني وخطيب وكاتب فرنسي، خاض غمار الجدل بين البروتستنت والكاثوليك، وكان يريد التوفيق بينهما، وله رسالة في التاريخ العام: **Discours sur l'histoire universelle** وتعتبر من أول ما كتب في فلسفة التاريخ.

(١٤٤) **J. J. Rousseau** (١٧١٢ – ١٧٧٨) فيلسوف وكتاب فرنسي مشهور؛ كان ذا نفس جمة التقلب والحساسية، وقد ظهر أثر ذلك في حياته المضطربة القلقة، وظهر أثر الأمرين معًا في تآليفه الأدبية، أشهر تآليفه «العقد الاجتماعي» و«إميل» و«الاعترافات»، وهو يعد من الكتاب الذين مهدوا للثورة الفرنسية وللحركة الابتداعية (الرومنتيكية).

يوحنا هردر[١٤٥]، وقد صدر كتابه «خواطر في فلسفة تاريخ الإنسانية» في سنة ١٧٨٤ – ١٧٩١، ثم يوحنس ميللر[١٤٦] وقد بدأ في عام ١٧٨٦ نشر كتابه الحماسي «تاريخ الحلف السويسري»، ثم فردريخ شيلر[١٤٧] الذي صدر كتابه ذو العبارة الشعرية العالية والخاص بحرب الثلاثين سنة فيعام ١٧٩١، ثم فريدريخ شلوسر[١٤٨]، وقد حاول في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر وضع تاريخ عام مفصل، ولكنه عجز عن إتمامه، إلا أن الخمس والعشرين سنة العظيمة التي شهدت الثورة وحروب الثورة (١٧٨٩ – ١٨١٥) كانت غير ملائمة للبحث التاريخي والإنشاء التاريخي، فالحوادث كانت أعجب من أن تسمح بالتفكير، والأهواء كانت أجمح من أن تأذن باستخلاص المعاني، وتغير الآراء كان أسرع من أن يضمن تكوين عقيدة ما.

فلما جنحت أوروبا مرة أخرى بعد مؤتمر فينا (١٨١٥) إلى سلم حملها عليها الجهد والإعياء، تبين أن قد حدث رد فعل قوي لتعاليم روسو والثورة

---

(١٤٥) **Johann Herder** (١٧٤٤ – ١٨٠٣) شاعر وفيلسوف ألماني يمتاز شعره بسهولته ونزعته الوجدانية، أشهر مؤلفاته على الإطلاق كتابه الفلسفي المذكور في المتن، وفيه يحاول المؤلف أن يفسر النمو الإنساني من طريق البحث في ماهية اتصال الإنسان بالبيئة الطبيعية.

(١٤٦) **Johannes Muller** (١٧٥٢ – ١٨٠٩) مؤرخ سويسري، كتب تاريخًا عامًا لسويسرا **Geschichten der schweizer** وصل فيه إلى عام ١٤٨٩ وقيمته اليوم أدبية فقط، ولكنه غذى الوطنية السويسرية إلى حد بعيد.

(١٤٧) **Friedrieh Schiller** (١٧٥٩ – ١٨٠٥) شاعر، ودرامي، وفيلسوف الماني كبير، شعره وجداني النزعة، ومن أقوى دراماته المأساة المسماة «اللصوص» **Die Rauber** وأهم ما كتب في التاريخ المذكور في المتن، وله بحوث فلسفية في نظرية الجمال.

(١٤٨) **Fredrich Schlosser** (١٧٧٩ – ١٨٦١) مؤرخ ألماني وسع أفق بحثه في التاريخ، فلم يقتصر على الحروب وحياة الملوك والأمراء بل وصف أحول الشعوب وحضاراتها، وأهم كتبه كتابه المذكور في المتن **Weltgeschichte**.

الفرنسية، وخير من يتمثل به في ذلك في مجال الفلسفة هو ج. ج. فجت[١٤٩] (١٧٦٢ – ١٨١٤) فكتاباه «نظرات في الثورة الفرنسية» (١٧٩٣) و«أساس الحقوق الطبيعية» (١٧٩٦) يسري فيهما روح العقد الاجتماعي: من فردية، ودولية، ومساواة؛ على أن كتابيه «الدولة التجارية المقفلة» (١٨٠٠) و«النظرية السياسية» (١٨١٣) يدلان على أنه انصرف عن روسو انصرافًا تامًا، وأنه تحول بمجامع قلبه إلى المبدأين الرجعيين: الجماعية والقومية، هذا ولم يعمر واحد من المؤرخين حتى يشهد مثل هذا التحول التام، اللهم إلَّا إذا عددنا في المؤرخين تلك العصبة الإنجليزية المؤلفة من: روبرت سوذي، ووليم وردزورث، وصمويل تيلر كولردج، وجيمس مكنتوش[١٥٠]، لقد استأثر الموت قبل عام ١٨١٥ يهردر (١٨٠٣) وشيلر (١٨٠٥) وميلر (١٨٠٩)، أما الطبقة الجديدة من المؤرخين، فكانت في قبضة حركة رجعية ابتداعية[١٥١] قد بدت طلائعها.

كانت هذه الحركة الجديدة أعجب آثار عصر الثورة الفرنسية، كانت إيذانًا بثورة عنيفة على العقلية الشكاكة التي اتصف بها فولتير وَالْمعَلميون[١٥٢]

---

(١٤٩) J. G. Fichte (١٧٦٢ – ١٨١٤) فيلسوف ألماني تتلمذ لكانت وتأثر به في مذهبه الفلسفي.

(١٥٠) Robert Southey (١٧٧٤ – ١٨٤٣) وWilliam Wordswoth (١٧٧٠ – ١٨٥٠) وSamuel Taylor Coleridge (١٧٧٢ – ١٨٣٤) و James Mackintosh (١٧٦٥ – ١٨٣٢) هؤلاء أصلًا شعراء من الإنجليز رفعوا لواء الشعر الابتداعي (الرومنتيكي)، غير أن لهم كتابات تاريخية كتبوها على سبيل الهواية لا التخصص.

(١٥١) Romantic Reaction

(١٥٢) نسبة إلى «معلمة» وهو لفظ استعمله بعض أدباء هذا الصعر لكلمة Encyclopaedia أو «دائرة معارف»، والمراد بالمعلمين الفرنسيين جماعة من كتاب فرنسا في القرن الثامن عشر توفرت على تأليف معلمة تضم شتات العلوم لعهدهم وتكون أساسًا لوضع نظام اجتماعي جديد، وأشهر هؤلاء الكتاب ديدرو Diderot ودالمبرت D' Alembert.

الفرنسيون والتي أتت ملك آل بوربون والكنيسة الغالية من قواعدهما، كما كانت إيذانًا بثورة عنيفة على فلسفة روسو، وكانت المجردة التي نبذت ظهريًا عبر التاريخ ومُثلاته، وراحت تظاهر ذوي البدع في محاولتهم إقامة المجتمع الإنساني على أسس جديدة بالمرة، كان أبرز صفات تلك الحركة الرجعية إخلاصها للديانة السماوية(١٥٣)، واحترامها للقديم لأنه قديم، وخضوعها للتقاليد والعرف، وتمجيدها للعصور الوسطى وعدها إياها مثلًا أعلى بين العصور، وبعثها مبدأ الحق الإلهي في الحكم، وإجلالها مبدأ القومية، واعتراضها على مبدأ الديمقراطية، وعاد التاريخ فأصبح مرة أخرى أيدي الابتداعيين تعليميًا عمليًا، فبُعثت عبادة الفروسية، وبدت مفاخر العصر الوسيط ومحاسنه في ألوان بهجة زاهية في مثل «مجموعة تاريخية» لبرو(١٥٤) (١٨٢٠) و«حجر الشرف العريض» لدجبي(١٥٥) (١٨٢٢) و«الفروسية وعصرها» لبوشنج(١٥٦) (١٨٢٣) و«تاريخ الفروسية» لجيمس(١٥٧) (١٨٣٠)، وموهت عيوب كنيسة العصور الوسطى، وصورت النواحي الجذابة من عصر التدين تصويرًا زاهي الألوان في مؤلفات لا يتناولها الحصر، كان أشهرها وأبعدها أثرًا كتاب شاتو

---

(١٥٣) المراد بها هنا النصرانية، وفي ذلك إشارة ضمنية إلى اعتقاد فولتير، ومن على شاكلته من كتاب عصر الثورة بوجود الإله ولكن من غير طريق دين سماوي.

(١٥٤) **Perrot** جغرافي وكاتب فرنسي من أهل القرن التاسع عشر، له آثار جغرافية كثيرة، وله المجموعة المذكورة في المتن وهي خاصة بنظم الفروسية.

(١٥٥) **Digby** (١٨٥٠ – ١٨٨٠) كاتب إنجليزي اشتهر بكتابه المذكور في المتن **Broad Stone of Honour**، وقد عرض فيه بتفصيل للعادات التي كانت شائعة في العصور الوسطى.

(١٥٦) **Busching** (١٧٨٣ – ١٨٢٩) مؤرخ وأستاذ ألماني خير كتبه الكتاب المذكور في المتن **Ritterzeit und Ritterwesen**.

(١٥٧) **James** (١٧٩٩ – ١٨٦٠) قصاص ومؤرخ إنجليزي له قصص كثيرة، وله من التاريخ الكتاب المذكور في المتن.

بريان[١٥٨] «عبقرية النصرانية» (١٨٠٢) و«الفتح النرمندي» لتييري[١٥٩] (١٨٢٥) و«دوقات برغندية» (١٨٢٦) لبارانت[١٦٠]، وذلك الكتاب الرائع «تاريخ فرنسا» لميشيليه[١٦١] (ابتداء من ١٨٣٣) و«الماضي والحاضر» لكرليل[١٦٢] (١٨٤٣)، كل هذه الكتب توضح كيف انصرفت أذهان الناس عن الواقع المستبشع إلى المثل الأعلى الدارس، إلى «فضائل العالم القديمة» التي كانت إلى حد بعيد خرافية ووليدة الوهم والخيال، ومثل ذلك قد يقال عن كتب أخرى أفادت العلم فوائد محققة مثل كتاب «تاريخ السياسة والتشريع في ألمانيا» لأيخورن[١٦٣]. إن الصنيع الوحيد الذي أسدته الحركة الابتداعية إلى التاريخ هو أنها ردت على العصور الوسطى مقامها، وبرأتها مما وصمها به رجال

---

(١٥٨) **Chateaubriand** (١٧٦٨ – ١٨٤٨) من أكبر كتاب فرنسا الحديثة، ولي عدة مناصب سياسية في عهد نابليون وعهد الملكية، أشهر تآليفه كتابه المذكور في المتن **Genie du Christianisme** وهو يظهر في محاسن النصرانية، وقد تأثر به غير واحد من كبار كتاب فرنسا في القرن التاسع عشر.

(١٥٩) **Thierry** (١٧٩٥ – ١٨٥٦) مؤرخ فرنسي من أنصار مبادئ الثورة الفرنسية، تأثر في كتابة التاريخ بشاتو بريان وبنزعة السير ولتر سكوت الابتداعية، وأشهر كتبه كتابه المذكور في المتن عن فتح النرمنديين إنجلترا، وقد عول فيه على المصادر الأصلية.

(١٦٠) **Barante** (١٧٨٢ – ١٨٥٦) سياسي ومؤرخ فرنسي أهم كتبه الكتاب المذكور في المتن **Histoire des ducs de Bourgone**، وقد نال رضا المدرسة الابتداعية بصيغته القصصية وأسلوبه الخاص.

(١٦١) **Michelet** (١٧٩٨ – ١٨٧٤) مؤرخ فرنسي، أشهر كتبه كتابه المذكور في المتن، وهو يدل على أن مؤلفه كان على سعة تصوره وخياله ينظر إلى الحوادث بعين الهوى السياسي والديني.

(١٦٢) **T. Carlyle** (١٧٩٥ – ١٨٨١) هو الكاتب المؤرخ الفيلسوف الإنجليزي المشهور، بنى التاريخ على سير الأبطال دون كبير اكتراث للمبادئ والتيارات العامة، أشهر كتبه في التاريخ كتابه المذكور في المتن **Past and Present** وتاريخ الثورة الفرنسية وتاريخ فردريك الكبير.

(١٦٣) **Eichorn** (١٧٨١ – ١٨٥٤) فقيه ألماني يعتبر من الثقات في تاريخ ألمانيا الدستوري، وأشهر مؤلفاته كتابه المذكور في المتن **Deutsche Staats-und Rechtsgeschichte**.

النهضة والإصلاح الديني وعصر الاستنارة، ووجهت العلماء إلى دراسة سجلاتها التي طال إهمالهم وعدم احتفالهم بها، بيد أن روح الحركة الابتداعية كان خاطئًا، لقد أبى أن يعتبر الماضي ماضيًا، وكان شر ما أسرفت فيه عبقريته الممسكة بذناب الماضي ماثلًا فيما يسمى بفلسفة التاريخ عند شليجل[١٦٤]، وشلنج[١٦٥]، وهجل[١٦٦].

---

(١٦٤) Schlegel (١٧٧٢ – ١٨٢٩) شاعر ونقاد وعالم ألماني اشتهر بنزعته الابتداعية والشعرية في دراسة اليونان والرومان، والفلسفية في دراسة التاريخ بوجه عام، وتتجلى طريقته الفلسفية في التاريخ في كتابه «فلسفة التاريخ» Philosophie der Geschichte.

(١٦٥) **Schelling (١٧٧٥ – ١٨٥٤) فيلسوف ألماني له بحوث في فلسفة الأساطير وفلسفة التاريخ.**

(١٦٦) **Hegel (١٧٧٠ – ١٨٣١) فيلسوف ألماني له مذهب فلسفي يوصف بالغموض، وله بحوث في فلسفة التاريخ تتلخص في أن الدولة كائن مفرد، وأن مادة التاريخ عبارة عن علاقة الدول بعضها ببعض وعلاقتها بالروح العام التي هي مظهر له، وأن تاريخ العالم عبارة عن مجلس قضاء يقبض فيه على صولجان الحكم شعب واحد يمثل الروح العام، ويظل كذلك إلى أن يظهر شعب آخر أوسع منه حرية فينزع منه ذلك الصولجان، وأن تاريخ الدنيا يقع في ثلاثة عصور: الشرقي، واليوناني الروماني، والجرماني، وأن الحرية تمثلت في العصر الأول في الحاكم المستبد، وفي العصر الثاني في النظام السائد، وفي العصر الثالث في الإنسان من حيث هو إنسان، وغير خاف ما في ذلك التصور من شطط وتعسف.**

الفصل الخامس

بوادر الدراسة العلمية للتاريخ في القرن التاسع عشر

مقاصد جديدة – تصورات جديدة – طرائق جديدة – تأثير العلم الطبيعي – فكرة النشوء – نشر المصادر

عرضنا فيما سبق التاريخ من أقدم العصور إلى مفتتح القرن التاسع عشر عرضًا كان سريعًا وسطحيًا بحكم الضرورة، ومنه يؤخذ أن دراسة التاريخ لم تبلغ في عصر من تلك العصور الدقة والنزاهة والإحاطة المبلغ الذي يقتضيه العلم الصحيح، نعم إن تيوسيديد وبوليب كانا في العصر القديم أقرب إلى الروح العلمي في تناولهما المدونات القديمة، كما كان ابن خلكان وابن خلدون في العصر الوسيط، ومكيافلي وجو يشرديني وكتَّاب القرن الثامن عشر أو عصر الاستنارة في مفتتح العصر الحديث، إلا أنهم جميعًا لم يبلغوا من الوجهة العلمية مرتبة الكمال، فغرض تيوسيديد وبوليب من التاريخ كان من غير نزاع سياسيًا، وغرض عرب العصور الوسطى دينيًا[١٦٧]، وغرض كتاب النهضة من أهل فلورنسا وطنيًا وقوميًا، أما كتاب القرن الثامن عشر من لدن فولتير إلى جبون فإنهم، وإن كانوا قد تحرزوا إلى حد ما من الحمية لمذهب بشري أو سماوي، لم يفلحوا في التجرد من الغرض والهوى، فأفسدوا بذلك كل ما كتبوا، ثم إنهم كانوا أصلًا مهملين من حيث الدقة في الجزئيات وتقصي المعلومات، فجاءت كتاباتهم وهي أدخل في عداد القصص الخيالي منها في عداد التاريخ العلمي، من أجل

(١٦٧) ذلك لأن الدين كان على وجه العموم أساس الحياة العقلية عند العرب في العصور الوسطى.

ذلك يلتمس للسير روبرت وُلْبول[١٦٨] بعض العذر حين يقول: «إن التاريخ ليس أهلًا للدرس فنحن نعرف أنه يفتري الكذب لا محالة»، ثم إن دوام سريان الخطأ الفاضح – وإن يكن طريفًا – من مؤلف إلى مؤلف إلى ما لا نهاية له ليؤيد بعض الشيء قول القائلين: إذا كان التاريخ لا يعيد نفسه فالمؤرخون لا شك يعيد بعضهم بعضًا.

وبينا نجد في القرنين السابع عشر والثامن عشر وثنيي النهضة الجدد عاكفين على بعث عبادة الآداب القديمة، والمصلحيين الدينيين جادين في بعت النصرانية الأولى، والعقليين يتجهون نحو الطبيعة، والابتداعيين نحو العصور الوسطى، إذا بنا نلحظ إلى جانب هؤلاء قومًا آخرين كانوا يقومون في بطء – ولكن في مخافته وجد – بعمل كان من شأنه تيسير نمو علم التاريخ في القرن التاسع عشر، ذلك هو جمع المصادر التاريخية ونشرها، لقد كان هذا العمل يحاوَل أول الأمر في شيء من التقطع والتهاون، لأن حرفة النشر لم تكن ملكتها قد اكتسبت بعد، وكان لابد دون اكتسابها من أن يلقى الناشرون إخفاقًا متكررًا يؤسف له، ولكن الناشرين اكتسبوا بالتدريج الخبرة الفنية اللازمة، وأمكن آخر الأمر أن تظهر تباعًا مجاميع من المادة التاريخية الموثوق بصحتها، ونورد في هذا المقام بعض المجاميع العلمية الهامة التي تمت قبل القرن التاسع عشر، منبهين إلى أن المجاميع المذكورة كانت إلى حد بعيد ثمرة أمرين أذكتهما منازعات عصر الإصلاح الديني، وهما الشعور القومي الحديث والعصبية الوطنية الجديدة، وكانت إنجلترا

---

(١٦٨) **Sir Robert Walpole** (١٦٧٦ – ١٧٤٥) سياسي إنجليزي مشهور، رأس الوزارة الإنجليزية من عام ١٧٢١ إلى عام ١٧٤٢.

أسبق الأمم في هذا المضمار بنشرها مجموعات من تاريخها اشتهر منها مجموعتا هول[(١٦٩)] (١٥٤٧) وهولينشد[(١٧٠)] (١٥٨٦) (وهما مصدر أغلب روايات شيكسبير التاريخية)، ثم اقتفت إسبانيا أثر إنجلترا فنشرت مجموعة روبرت بيل[(١٧١)] «كُتَّاب الشؤون الإسبانية» (١٥٧٨ – ١٥٨١)، ثم جاءت ألمانيا فنشرت لملخيور جولداست[(١٧٢)] مجموعته الخالدة المعروفة بـ «الملكية في الدولة الرومانية» (١٦١١ – ١٦١٤) وتبعتها في ذلك فرنسا، فنشر أندريه دوشين[(١٧٣)] «مؤرخو التاريخ النرمندي» (١٦١٩) ثم «مؤرخو التاريخ الفرنجي» (ابتداء من ١٦٣٦)، ولكن أهم من أية مجموعة من هذه المجموعات الوطنية المحضة مجلدات تواريخ العصور الوسطى التي شرع في إعدادها ونشرها من منتصف القرن السابع عشر علماء الرهبان البندكتيون من جماعة سنت مور[(١٧٤)] بباريز، وننوه بصفة خاصة بمجهود رجل عظيم منهم هو جان ما بيلون[(١٧٥)]

---

(١٦٩) **E. Hall** (١٤٩٨ – ١٥٤٧) مؤرخ إنجليزي يعتبر تاريخه المذكور في المتن من المصادر الهامة لروايات شيكسبير التاريخية.

(١٧٠) **R. Holinshed** (توفي حوالي ١٥٨٠) مؤرخ إنجليزي كتب تاريخًا مطولًا لإنجلترا واسكتلندا وأيرلندا، وهو من المصادر الهامة لروايات شيكسبير التاريخية وكثير من الكتاب المسرحيين في عهد الملكة إليصابات.

(١٧١) **Robert Beal** (؟ – ١٦٠١) ففيه إنجليزي نفي من إنجلترا لآرائه الدينية، فطاف كثيرًا من ممالك أوروبا باحثًا عن الكتب النادرة مما مكنه من إعداد المجموعة النفيسة المذكورة في المتن.

(١٧٢) **Melchior Goldast** (١٥٧٨ – ١٦٣٥) فقيه ومؤرخ ألماني.

(١٧٣) **Andre Duehesne** (١٥٨٤ – ١٦٤٠) ويلقب بأبي التاريخ الفرنسي، وذلك لمجموعاته العظيمة الخاصة بالتاريخ الفرنسي.

(١٧٤) **St. Maur'**

(١٧٥) **Jean Mapillon**

(١٦٣٢ – ١٧٠٧) الذي تعد رسالته «في الشئون الدبلوماسية» (١٦٨١) فاتحة البحث العلمي المخطوطات وبداية نشر وثائق العصور الوسطى على الوجه المرضي، وبينا جماعة سنت مور توالي إصدار الآثار المذكورة، كان جان بوللند[١٧٦] في نفس الوقت تقريبًا قد أخذ بنشر في عام ١٦٤٣ مجموعة «الأعمال المقدسة» وهي سلسلة ضخمة استغرق إصدارها قرنين ونصف قرن من الزمان، وهي تسرد سير القديسين وأعمالهم (وأحيانًا تتجاوز ذلك إلى معلومات أخرى) إشادة بقدر الكنيسة وإنعاشًا لخواطر الناس، وفي عام ١٦٦٣ أسس كليبر[١٧٧] الوزير الفرنسي القدير «المجمع العلمي للنقوش والأدبيات» فكان من ضمن أعماله الشروع في طبع «مراسيم ملوك فرنسا».

وقد شهد القرن الثامن عشر بداية سلاسل أخرى من المطبوعات نذكر من بينها المجلدات الخمسة والعشرين التي أجاد موراتوري[١٧٨] اختيارها ونشرها بعنوان «كُتّاب الشؤون الإيطالية» (١٧٢٣ – ١٧٥٠)، ثم الثلاثة والعشرين مجلدًا التي تتألف منها «مجموعة مؤرخي الغال وفرنسا» (ابتداء من ١٧٣٨) وقد نشرها بوكيه[١٧٩]، أما إنجلترا فقد تخلفت كثيرًا وراء الدول الأوربية الأخرى في أمر العناية بوثائقها

---

(١٧٦) Jean Bolland (١٥٩٦ – ١٦٦٥) مؤرخ ديني يسوعي من أهل الأراضي المنخفضة.

(١٧٧) Colbert (١٦١٩ – ١٦٨٣).

(١٧٨) Muratori (١٦٧٢ – ١٧٥٠) مؤرخ إيطالي بلقب بأبي التاريخ الإيطالي بجمعه المجموعة المذكورة في المتن.

(١٧٩) Bouquet (١٦٨٥ – ١٧٥٤) راهب بندكتي قام بالمجموعة المذكورة في المتن بناء على اقتراح الوزير كليبر.

القديمة، نعم إن حكومتها نقدت توماس رَيمر[١٨٠] المال الذي مكنه من إعداد مجموعته المسماة «فيديرا» (١٧٠٤ – ١٧٣٥) ولكنها لم تؤلف لجنة خاصة تدرس بوجه عام حقيقة مستنداتها وأقسامها إلا في عام ١٨٠٠، إلا أن جهود الأفراد وحماسة بعض الخواص كانت في أثناء ذلك قد مهدت السبيل في هذا الصدد إلى حد ما، فنشر وليم دَجديل[١٨١] مجموعته «الأديار الإنجليزية» (١٦٥٥ – ١٦٧٣) وتوماس مادُكس[١٨٢] مجموعته «تاريخ المالية الإنجليزية» (١٧١١) وإدمند جبسن[١٨٣] مجموعة «قوانين الكنيسة الإنجليزية» (١٧١٣) وتوماس هيرْن[١٨٤] مجموعة «التاريخ» وديفيد ويلكنز[١٨٥] مجموعته» مجامع بريطانيا العظمى الدينية» (١٧٣٧)، ونشر فارلي[١٨٦] كتاب «مسح الأرضين» (١٧٨٣)، وكانت هذه الجهود مما عمل على نفي معرة التقصير والقصور عن علم العاديات الإنجليزي وتدارك ما فات الحكومة الإنجليزية من جراء تهاونها.

---

(١٨٠) Thomas Rymer (١٦٤١ – ١٧١٣) مؤرخ ملكي إنجليزي ومجموعته عبارة عن وثائق المخالفات والمعاملات التي تمت بين إنجلترا والدول الأخرى ابتداء من عام ١١٠١ وقد أتمها بعد ريمر مساعده سندرسن ووصل بها إلى عام ١٧٣٥.

(١٨١) William Dugdale (١٦٠٥ – ١٦٨٦) أثري إنجليزي اشتهر بمجموعته المذكورة في المتن Monasticon.

(١٨٢) Thomas Madox (١٦٦٦ – ١٧٢٧) أثري وفقيه إنجليزي أشهر آثار مجموعته المذكورة في المتن.

(١٨٣) Edmund Gibson (١٦٦٩ – ١٧٤٨) عالم ديني وفقيه إنجليزي.

(١٨٤) Thomas Hearne (١٦٧٨ – ١٧٣٥) أثري إنجليزي نشر مجموعة تاريخ إنجليزية قديمة نفيسة.

(١٨٥) David Wilkins (١٦٨٥ – ١٧٤٥) مستشرق إنجليزي قديم، كان أستاذًا للغة العربية بكمبردج.

(١٨٦) Farley.

ويمكن القول على وجه العموم إنه عندما افتتح القرن التاسع عشر كان الغرب قد تهيأ لقيام مدرسة علمية من المؤرخين، ذلك بأن جمهورية الآداب الناشئة المتشبعة بروح النقد الجديد المستفاد من دراسة الطبيعة كانت قد سئمت خرافات ألبست ثوب الواقع، ودعايات قنعت بقناع الحقيقة، ونوادر كان يصرح بأنها تمثل الفلسفة، أما العيوب التي يؤخذ بها التاريخ في ذلك العهد، أي مفتتح القرن التاسع عشر، فأهمها أمور ثلاثة:

١) خطأ في القصد.

٢) نقص في التصور.

٣) عجز في الطريقة.

١) فأما أن القصد كان خطأ فذلك لأن التاريخ قلما كان يدرس لذاته، بمعنى أنه إنما كان يدرس ويستغل لتأييد ما هو أجنبي عنه من الصوالح السياسية أو الدينية، لا ابتغاء الوصول إلى الحقيقة في أحداث الماضي الخطيرة من حيث عللها ووصفها ونتائجها، فحتى فولتير لم يتورع عن تسخير علمه في مناوأة رجال الدين، وحتى الفيلسوف هيوم لم يقو على ألا يكون كتابه «تاريخ إنجلترا» مجرد نشرة مسهبة من نُشَر حزب المحافظين، ولقد بلغ الأمر بأمر سن[١٨٧] الأمريكي صديق توماس كارليل أن قال عن علماء الإنجليز: «إنهم حتى عندما يتناولون تاريخ الرومان واليونان فإنهم يهبطون به إلى مستوى الصحافة الحزبية الإنجليزية» وقد

---

(١٨٧) R. W. Emerson (١٨٠٣ – ١٨٨٢) كاتب وشاعر أمريكي مشهور عرف ببلاغة الأسلوب وبنزوعه نحو المثل الأعلى في حياته.

سوغ هذا النقد ما عرف به ميتفُرد[١٨٨] من انحراف صري عن الديمقراطية، وما عرف عن جروت[١٨٩] من ميول جمهورية ظاهرة، ولقد كانت محافظة أليسون[١٩٠] تحكي في وضوحها وصراحتها ما عرف بعد عن مكولي[١٩١] من نزوع إلى مبادئ حزب الأحرار سواء بسواء.

٢) وأما أن التصور كان ناقصًا، فذلك لأن المؤرخين كانوا مسرفين في نزعتهم المحلية، مسرفين في عصبيتهم الطائفية، مسرفين في أخذ الناحية الفردية من التاريخ، مسرفين في نظرهم السطحي إلى الأمور. لقد كانوا مسرفين في النزعة المحلية لأنهم كانوا يقصرون أنفسهم على دولة بعينها، بل على إقليم بعينه، غير عابئين بأوروبا فضلًا عن القارات الأخر من حيث هي كل لا يتجزأ، ولقد كانوا مسرفين في العصبية الطائفية لأنهم قلما كانوا يتخطون دائرة الدين والسياسة المحدودة، غافلين عما كان يجد في ميادين الاقتصاد والاجتماع والعلم والفن من مؤثرات كثيرًا ما كانت أجل خطرًا من شؤون الدين والسياسة، وكانوا مسرفين في أخذ الناحية الفردية من التاريخ لأنهم كانوا يعنون بالملوك والملكات والوزراء والقواد، وفي الجملة

---

(١٨٨) **Mitford** (١٧٤٤ – ١٨٢٧) مؤرخ إنجليزي ملكي النزعة، وقد تأثر بذلك في كتابه «تاريخ اليونان».

(١٨٩) **Grote** (١٧٩٤ – ١٨٧١) هو مؤرخ اليونان الإنجليزي الأكبر، كان جمهوري الميل وظهر أثر ذلك في تاريخه لليونان.

(١٩٠) **Alison** (١٧٩٢ – ١٨٦٧) مؤرخ إنجليزي كتب تاريخًا ضخمًا لأوربا الحديثة تأثر فيه بآراء المحافظين السياسية.

(١٩١) **Macaulay** (١٨٠٠ – ١٨٥٩) كاتب ومؤرخ سياسي إنجليزي، عرف بقوة الأسلوب وامتلاك ناصية اللغة، ولكنه كمؤرخ لا يوصف بالاعتدال في الحكم على الأشخاص والأعمال، وقد تأثر في كتاباته التاريخية بتحيزه الظاهر إلى حزبه حزب الأحرار.

كانوا يعنون بعظماء ارجال، غاضين النظر عن أحوال الجماهير لأنها كانت في اعتبارهم أقل من أن يعرجوا عليها ويقفوا عندها، مع أن المعلوم أن هؤلاء السادة المسوَّدين إنما يشرعون لهذه الجماهير ويذودون عن حياضها، وأن على كد هذه الجماهير وجهودها يدور نظام العالم بأسره، ولقد كانوا مسرفين في النظر السطحي إلى الأمور لأنهم لم يستطيعوا أن ينفذوا إلى الخفي المستتر وراء ظواهر الأخبار الخاصة والقصص العامة من أفكار وعواطف وعزائم هي القوى الحافزة إلى العظائم المسطورة.

٣) هذا ولقد كانت الطريقة عاجزة قاصرة لأن المؤرخين سلموا بكثير من الأخبار على أساس الوثوق والتصديق دون نقد أو تمحيص، ولأنهم لم يعنوا العناية الكافية بجمع المصادر الأساسية، وما كان منها في متناول أيديهم فإنهم لم يناقشوه وينقدوه ليميزوا منه الحق من الباطل، والحق أن كل الأسس التي كان يقوم عليها التأريخ إذ ذاك كانت معيبة وعرضة للتظنن والاتهام.

يؤرخ قيام المذهب الحديث في النقد التاريخي من نشر ل. س. ف. ا. ولف[١٩٢] «مقدمة هوميروس» في عام ١٧٩٥، وهذه المقدمة لم تكن بطبيعة الحال بحثًا تاريخيًا، وإنما كانت بحثًا أدبيًا لغويًا يقرر رأيًا حديثًا مؤداه أن الألياذة والأوديسية لم يكتبهما هوميروس ولا رجل آخر (كما يعتقد لويس كرول[١٩٣]) مسمى بهذا الاسم، ولكن تتابعت على نظمها جماعة

[١٩٢] C. F. A. Wolf (١٧٥٩ – ١٨٢٤) هو أستاذ وعالم لغوي ونقاد ألماني، اشتهر ببحثه المذكور في المتن.

[١٩٣] Lewis Carroll هو الاسم المستعار لدودجسن Dodgson الرياضي الإنجليزي (١٨٣٢ – ١٨٩٨) المؤلف لكثير من كتب الرياضة وقصص الأطفال.

من الشعراء في فترات متباعدة من الزمن وقيمة المقدمة المذكورة من حيث التاريخ تنحصر في أنها برهنت على أن من الممكن أن تستنبط معلومات هامة خطيرة من الوثائق القديمة متى أقبلنا على دراستها بعقول حذرة وعيون يقظى، وبذلك كانت هذه المقدمة مصدقة لما قاله لورنزوفلا منذ ثلاثمائة سنة خلت وأعاده مابيلون في القرن السابع عشر، ثم إن التأثير الذي أحدثته مقالة ولف الثورية في البيئات العلمية حمل تلميذه أوغست بوخ(١٩٤) على أن يجرب طريقة أستاذه في المواد التاريخية، فوصل إلى نتائج طريفة وإن تكن غير رائعة، ضمنها كتابه «الاقتصاد السياسي في أثينا» (١٨١٧)، على أن تأثير ولف في بوخ كان دون تأثيره في نيبوهر(١٩٥) مؤرخ الرومان القدماء، فقد دفعت حرارة النقد الجديد نيبوهر إلى استخدام طريقة ولف في درس دقيق لنصوص ليفي وغيرها من مصادر التاريخ الخرافي للجمهورية الرومانية، فلم تثبت الخرافات التي شحنت بها كتب كثير من الكتاب حتى الشكاكين منهم أمثال مكيافلي ومونتسكيو على تحليله الهادم بل تطايرت وذهبت جفاء تاركة وراءها راسبًا يسيرًا من الحقيقة الثابتة لا يكاد يعرف من شدة ضآلته، من أجل ذلك كان صحيحًا ما قاله الدكتور جوتش(١٩٦) من أن نيبوهر «أحيا التاريخ الروماني وبوأ التاريخ نفسه مكانة علم مستقل من الطراز الأول»، على أن مذهب النقد

---

(١٩٤) **August Boeckh** (١٧٨٥ – ١٨٦٧) عالم ألماني متخصص في اليونانية واللاتينية، وأهم كتبه كتابه المذكور في المتن.

(١٩٥) **B. G. Niebuhr** (١٧٧٦ – ١٨٣١) سياسي ومؤرخ ألماني اشتهر بكتابه «تاريخ الرومان»، وقد نهج فيه منهجًا علميًا مبتكرًا فكان بذلك من المؤرخين القلائل الذين رقوا التاريخ الروماني خاصة والبحث التاريخي عامة.

(١٩٦) **G. P. Gooch** مؤرخ إنجليزي اشتهر بتآليفه في التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر.

الذي وضعه ولف واتبعه نيبوهر قد اعتنقه بتصرم القرن التاسع عشر علماء لا يحصون كثرة في شتى الأقطار، ونكتفي هنا بأن نورد أسماء نخبة من مشاهيرهم، فألمانيا التي هي مهد فن التاريخ الحديث قد شهدت السواد الأعظم من أتباع هذا المذهب وحملة لوائه، يتزعم هؤلاء في سهولة ويسر ليو بولدفون رنكي الذي يقول الدكتور جوتش إنه «زعيم المؤرخين في الأزمنة الحديثة غير منازع» وإنه «لم يظهر قط مؤرخ أقرب منه إلى المؤرخ المثالي»، لقد كان ظاهرًا بعدالته ونزاهته، وقد جعل أول أغراضه أن يصل بالدقة إلى معرفة الحوادث وكيفية حدوثها، ثم إنه عمر طويلًا ودأب كثيرًا وطرق موضوعات شتى تتصل بإيطاليا وتركيا وإسبانيا والصرب والبابوية والإصلاح الديني وفرنسا وإنجلترا في القرن السابع عشر وغير ذلك، فلما بلغ الخامسة والثمانين وعجز عن المطالعة والكتابة أملي تاريخًا عامًا كان أتم منه سبعة مجلدات (وصل فيها إلى القرن الثاني عشر) عندما انطفأ سراج حياته في عام ١٨٨٦ بالغًا من العمر إحدى وتسعين سنة. وقد أتمت التاريخ المذكور عصبة وفية نبيلة من تلاميذه أشهرهم فايتز[١٩٧] وجيز برخت[١٩٨] وسيبل[١٩٩]. أما في مجال الدراسات الرومانية فإن تاج نيبوهر غدًا معقودًا على مفرق المؤرخ القدير تيودور ممسن (١٨١٧ – ١٩٠٣) وسنعرض له بعد قليل.

---

[١٩٧] **Waitz** مؤرخ ألماني كبير من أهل القرن التاسع عشر متخصص في تاريخ ألمانيا.

[١٩٨] **Giesebrecht** (١٨١٤ – ١٨٨٩) مؤرخ ألماني كتب تاريخًا لألمانيا في العصور الوسطى على النمط العلمي الحديث.

[١٩٩] **Sypel** (١٨١٧ – ١٨٩٥) مؤرخ ألماني يعتبر أعظم تلاميذ رنكي كتب في تاريخ الثورة الفرنسية وتاريخ ألمانيا الحديثة كتبًا عظيمة القيمة.

أما فرنسا فقد افتتح مذهب النقد الحديث فيها بتأسيس «مدرسة الوثائق»[٢٠٠] في عام ١٨٢١، إلا أن المدرسة المذكورة خملٍ شأنها في السنوات الأولى من حياتها حتى ليمكن القول بأنها أسست من جديد في عام ١٨٢٩، وقبل انتصاف القرن التاسع عشر كانت قد غدت نهائيًا المركز الرئيسي للدراسات البليوغرافية والدبلوماسية في أوربا بأسرها، ومن أقدم تلاميذها بنيامين جرارد[٢٠١] (١٧٩٧ – ١٨٥٤)، ولويس كيشرات[٢٠٢] (١٨١٤ – ١٨٨٢)، وليو بولد دليل[٢٠٣] (١٨٢٦ – ١٩١٠)، وقد رفع هؤلاء بما كتبوا في شتى نواحي التاريخ الفرنسي في العصور الوسطى مستوى البحث العلمي الدقيق، وسار على نهج هؤلاء الرواد عصبة متزايدة من التابعين المعروفين بالقدرة العلمية، نخص منهم بالذكر جبريل مونود[٢٠٤]، وأوغست مولينير[٢٠٥]، وآرتور جيري[٢٠٦]، وجوليان هافت[٢٠٧]، وفوستل ده كولنج، وبول فيوليه[٢٠٨] وآشيل لوشير[٢٠٩].

---

(٢٠٠) Ecole des Chartes

(٢٠١) Benjamin Guerard

(٢٠٢) Louis Quicherat

(٢٠٣) Leopold Delisle

(٢٠٤) Gapriel Monod

(٢٠٥) Auguste Molinier

(٢٠٦) Arthur Giry

(٢٠٧) Julian Havet

(٢٠٨) Paul Viollet

(٢٠٩) Achille Luchaire

وسرت عدوى الدقة والضبط من فرنسا وألمانيا إلى إنجلترا، إلا أن الأمة الإنجليزية كان ضميرها قد تنبه يريد الحركة قبل أن يتأذى نفوذ القارة الأوربية إليها، فهنرى هلام[(٢١٠)] (١٧٧٧ – ١٨٥٩) الذي نعتبره الآن من هواة التاريخ، قد أظهر في كتابيه «حال أوروبا في العصور الوسطى» (١٨١٨) و«تاريخ إنجلترا الدستوري» (١٨٢٧) علمًا واسعًا، وجهدًا جاهدًا، ونزاعة عالية، وأسلوبًا هو بحق الأسلوب التيوتوني الموصوف بجفافه وثقله، وأظهر منه تأثرًا بالمثل الألمانية سير فرنسيس بلجريف[(٢١١)] (١٧٨٨ – ١٨٦١)، وجون مِتْشِل كمبل[(٢١٢)] (١٨٠٧ – ١٨٥٧) اللذان كانت كتاباتهما عن إنجلترا النرمندية والأنجلوسكسونية فاتحة عصر جديد للبحث العلمي في إنجلترا، ثم جاء في أثر هؤلاء الرواد جم غفير من العلماء اتصفوا بالحذق في التخصص الذي نما في قاعات البحث الألمانية والمدارس الفرنسية، وأعادوا من جديد بحث سجلات التاريخ البريطاني بأسره، من أبعد هؤلاء صيتًا وليم استبز[(٢١٣)]، ومندل كريتون[(٢١٤)]، وصمويل روزن جردينر[(٢١٥)]، وفردريك وليم يمتلند، وتوماس فردريك

---

(٢١٠) **Henri Hallam**

(٢١١) **Sir Francis Palgrave**

(٢١٢) **John Mitchell Kemble**

(٢١٣) **William Stubbs** (١٨٢٥ – ١٩٠١) مؤرخ وأسقف إنجليزي، اشتهر بكتابه «تاريخ إنجلترا الدستوري» الذي لم يفقه كتاب آخر في موضوعه حتى اليوم.

(٢١٤) **Mandell Creightom** (١٨٤٣ – ١٩٠١) مؤرخ وأسقف إنجليزي اشتهر بتأريخه للبابوية خاصة، واشترك مع بعض كبار المؤرخين في إصدار المجلة الإنجليزية التاريخية.

(٢١٥) **Samuel Rawson Gardiner** (١٨٢٩ – ١٩٠٢) مؤرخ إنجليزي اشتغل بتاريخ إنجلترا خاصة، وله فيه عدة كتب قيمة، وهو يمتاز ببساطة الأسلوب وعدالة الحكم.

تاوُت[٢١٦]. ويقف إلى جانب هؤلاء وإن كان لا يكاد يعد منهم، رجل عظيم الشأن هو لورد أكتن، فهو أوربي المحتد وإن كان بريطاني المولد، لم تتقيد عبقريته العالمية واطلاعه الفذ بزمان ولا مكان، وكانت عباراته ترجمان العقلية النصرانية المثقفة.

اما أمريكا فسرعان ما تأقلمت فيها الدراسة العلمية الحديثة للتاريخ تحت تأثير النفوذ الألماني، فحتى جورج بنكروفت[٢١٧] ذلك الكاتب المتفنن الذي يجمع النقاد المنصفون على شدة تحيزه في كتابه «تاريخ الولايات المتحدة» قد أخذ عن هيرن وظفر بصداقة رنكي، على أن الروح الحقيقي لهيرن ورنكي لم يتجل في التاريخ الأمريكي ويلهمه إلا عندما أخذ هنري تُرِّي[٢١٨] يحاضر في جامعة هارفارد في حدود عام ١٨٥٧ وفرنسيس ليبر[٢١٩] في جامعة كولمبيا، وأندرو هوايت[٢٢٠] في جامعة

---

(٢١٦) Thomas Frederick Tout (١٨٥٥ – ١٩٢٩) مؤرخ إنجليزي، له عدة تآليف من أهمها كتابه في «العلاقات بين فرنسا وإنجلترا في العصور الوسطى والوقت الحاضر».

(٢١٧) George Bancroft (١٨٠٠ – ١٨٩١)، مؤرخ وسياسي أمريكي، ويعتبر أكبر مؤرخي الولايات المتحدة، تأثر بمذهب هيرن في النقد التاريخي، وكان يعني بأسلوبه عناية شديدة، أكبر تآليفه «تاريخ الولايات المتحدة» ويقع في بضعة مجلدات.

(٢١٨) Henri Torrey.

(٢١٩) Francis Lieber (١٨٠٠ – ١٨٧٢) مؤرخ ألماني الأصل والمنشأ، أمريكي الدار والمقام، اشترك في واقعة واترلو، وفي عام ١٨٢٧ هاجر إلى الولايات المتحدة وعين أستاذًا للتاريخ بكلية كولمبيا، وله من التآليف «الحرية المدنية والحكم الذاتي» – Civil Liberty and Self Government،

(٢٢٠) Andrew White (١٨٣٢ – ١٩١٨) هو مرب ودبلوماسي ومؤرخ أمريكي، وإلى جهوده الخاصة يرجع الفضل الأكبر في إنشاء جامعة كورنل بنيويورك، وله بحوث تاريخية قيمة بعضها في الصراع بين العلم واللاهوت في العالم المسيحي.

ميتشيغان، ومن البواعث القوية على الاشتغال بالبحث التاريخي الحر تعيين هـ. ب. أدمز[٢٢١] لأول تخرجه في جامعة هيدلبرج للتدريس في جامعة جونز هوبكنز عام ١٨٧٦ وتأسيس ج. و. برجس[٢٢٢] في عام ١٨٨٠ كلية العلوم السياسية الشهيرة في جامعة كولمبيا بنيويورك على مثال نظيرتها في بربين، ويطول بنا القول لو مضينا نعدد أسماء من تخرجوا على هؤلاء الأساتذة من مؤرخي الجيل الأمريكي الناشئ، كما يطول لو حاولنا استقصاء المؤرخين الذين نبغوا حديثًا في الممالك الأوروبية، فنكتفي بأن نورد أسماء رواد التاريخ الحديث، كل في بلده الخاص، فمن هؤلاء[٢٢٣] أرْنت في النمسا، وبَلَكي في بوهيميا، ومَرزالي في المجر، وفيلاري في إيطاليا، والتميرا في إسبانيا، وكرفلهو في البرتغال، وكُب في سويسرا، وبيرِن في بلجيكا، وفروين في هولندا، واشتيتشروب في الدانمركة، وجيبر في السويد، وكيزر في النرويج، وسولوفيف في روسيا، وللول في بولونيا، وباباريجو بولوس في اليونان نعم إن بعض هؤلاء الجهابذة خلط نمير العلم الصافي بصهباء الوطنية المسكرة، ولكنهم في جملتهم أبلوا بلاء حسنًا في تخليص التاريخ من شوائب الجهالة والباطل والدعاية والهوى.

---

(٢٢١) **H. B. Adams** (١٨٥٠ – ١٩٠١) مرب ومؤرخ أمريكي، كان أستاذًا للتاريخ في جامعة جونز هوبكنز، ومن كتاباته التاريخية «طرائق الدراسة التاريخية» **Methods of Historical Study**.

(٢٢٢) **J. W. Burgess**

(٢٢٣) **Arneth**، **Palacky**، **Marzali**، **Villari**، **Altamira**، **Carvalho**، **Kopp**، **Pirenne**، **Fruin**، **Steenstrup**، **Geijer**، **Keyser**، **Soloviev**، **Lelwel**، **Paparrigopoulos**.

كان من أول الأمور الجسام التي عنى المؤرخون العلميون بها، وثنوا أعنة نشاطهم إليها، أن يجمعوا، ويقسموا، ويبوبوا، وينشروا بالتدريج الركام المركوم في مكاتب أوربا ودور محفوظاتها من مواد للتاريخ غُفلٍ من بين مهملة ومخبوءة معًا، ولقد استطاع أولئك المؤرخون أن يحصلوا في معظم البلدان من حكوماتها على مساعدتها وعلى بعض المال اللازم لتلك المهمة بمس وتر الوطنية ولفت كل حكومة إلى ما كان غيرها من الحكومات يعمله (أو يعد بعمله)، وأول ما نشر في القرن التاسع عشر من المجموعات العظيمة بعامل النفور من الثورة ورد فعل المذهب الابتداعي، وكان كلاهما إذ ذاك في عنفوانه، هو مجموعة بتيتو[٢٢٤] المعروفة بـ «مجموعة مذكرات تتصل بتاريخ فرنسا» ابتدئ فيها عام ١٨١٩ وفرغ منها عام ١٨٢٩، وقد نشر منها إذ ذاك ما لا يقل عن مائة وثلاثين مجلدًا، وفي نفس العام الذي شهد بداية سلسلة بتيتو الفرنسية أسس اشتاين[٢٢٥] السياسي الوطني البروسي في ألمانيا «جمعية دراسات التاريخ الألماني» وهي جمعية اعتزمت أن تجمع وتحرر وتنشر سلسلة عظيمة تتصل بتاريخ ألمانيا في العصور الوسطى وتعرف بـ «أصول التاريخ الألماني القديم[٢٢٦]» وقد رسمت خطة هذا المشروع على أن يتألف من خمس مجموعات كل منها قائم بنفسه، وتلك المجموعات الخمس هي:

١) الكُتَّاب.

٢) القوانين.

---

[٢٢٤] **Petitot** (١٧٧٢ – ١٨٢٥) أديب فرنسي اشتهر بمجموعته المذكورة في المتن.

[٢٢٥] **Stein** (١٧٥٧ – ١٨٣١) هو السياسي الوطني البروسي المشهور في تاريخ أوروبا في العهد النابليوني.

[٢٢٦] **Monumenta Germaniae Historica**

٣) المراسيم الإمبراطورية.

٤) الرسائل.

٥) متفرقات.

إلا أن العمل الجدي في السلسلة المذكورة تأخر بضع سنوات لعدم كفاية محررها الأول، ثم وجدت الجمعية في عام ١٨٢٢ مديرًا مثاليًا في ج. هـ. برتز[٢٢٧]، الذي ظل زهاء خمسين عامًا مضطلعًا بالعبء الملقى على كاهله، وقد ظهر المجلد الأول من «الكتَّاب» في عام ١٨٢٦، كما ظهر المجلد الأول من «القوانين» في عام ١٨٣٥، وقبل أن يعتزل برتز العمل (وقد خلفه فايتز) كان قد أشرف على نشر ما لا يقل عن خمسة وعشرين مجلدًا فاخرة تمثل أرقى ما وصل إليه علم العصور الوسطى، وكان يعاصر اشتاين في فرنسا الوزير الأورلياني الشهير ف. ب. ج. جيزو[٢٢٨]، وهو مؤرخ نابه القدر وضع كتابًا في «تاريخ الحضارة» يمتاز بسعة تعميماته وعلو أسلوبه، فعندما كان وزيرًا للمعارف العمومية اقتدى باشتاين فكوَّن في عام ١٨٣٤ «جمعية تاريخ فرنسا»، وكان أول رؤسائها بارنت المؤرخ الابتداعي لآل برغندية، وقد نشرت سلسة مجلدات في مصادر التاريخ الفرنسي بلغت حتى الآن أكثر من ثلاثمائة وخمسين مجلدًا، وإلى جانب هذه الجمعية أنشأ جيز ولجنة فرعية لنفس وزارة المعارف العمومية شرعت تنشر على حساب الحكومة «مجموعة وثائق تاريخية فرنسية لم يسبق نشرها»، وهي مؤلفه من مصادر لم تنشر من قبل، وكثير منها مما يجل عن التقدير لنفاسته،

(٢٢٧) G. H. Pertz

(٢٢٨) F. P. G. Guizot (١٧٨٧ – ١٨٨٤).

وقد بلغ ما نشر منها حتى الآن ٣٣٠ مجلدًا، وعلى هذا المنوال شرعت البلجيك في عام ١٨٣٦ تنشر محفوظاتها، وإسبانيا في عام ١٨٤٢، والنمسا عام ١٨٤٩، أما إنجلترا فظلت تظالع متخلفة وراء هؤلاء تخلفًا بعيدًا، «فلجنة السجلات» التي الفت عام ١٨٠٠ لم تزد على أن أقامت الدليل على فشلها التام، ثم بعد خمسين سنة من ذلك أخذ وليم استبز وآخرون من المؤرخين الجدد القلائل يرفعون صوتهم مناشدين الحكومة أن تكون في الأمر أنشط وأكثر فطانة، وكانت نتيجة هذه الصيحة أن أخذت «مصلحة المطبوعات الرسمية» تنشر في عام ١٨٥٧ تلك التقاويم النافعة المعروفة «بتقاويم الأوراق الرسمية»؛ بل لقد بدئ في نفس العام في نشر سلسلة الطوامير النفيسة الخاصة بـ «تواريخ ومذكرات بريطانيا العظمى وإيرلندة في العصور الوسطى»، وكانت عدة مجلداتها عندما تمت في عام ١٨٩٦ قد بلغت ٢٤٤ مجلدًا، وفي عام ١٨٦٩ ألفت «لجنة المخطوطات التاريخية»، لفحص وفهرسة مجاميع الوثائق الهامة التي كانت في حيازة الأفراد والهيئات البلدية، فشرعت تنشر سلسلة تقاريرها وملحقاتها التي لم تتم بعد، وفي أثناء ذلك كانت جهود اللجان المحلية والمحترفة أمثال «كمدن»(٢٢٩) و«سلدن» و«هكلويت» و«سورتيز» و«شيتهام» قد أسدت إلى العلم منة مذكورة بتيسيرها على العلماء أمر الانتفاع بالسجلات القديمة، وإلى جانب تلك الكنوز القومية ينبغي أن نذكر مجموعات المواد الضخمة لتاريخ الكنيسة العام وبخاصة ال ٣٨٢ مجلدًا

(٢٢٩) the Camden، the Selden، the Hakluyt، the Surtees، the Cheetham.

التي يشتمل عليها «تاريخ آباء الكنيسة» لِمينْي[٢٣٠] (١٨٤٦ – ١٨٦٤) ومطبوعة فينا للآباء اللاتينيين (ابتداء من عام ١٨٦٦) و«طبعة برلين للآباء اليونانيين» (ابتداء من ١٨٩٧) و«السجلات البابوية» ليافي[٢٣١] وبوتهاست[٢٣٢] (ابتداء من عام ١٨٥١)، ثم مجموعة هِفِلي[٢٣٣] وهرجنروثر[٢٣٤] العظيمة الخاصة بتاريخ المجامع الدينية (ابتداء من ١٨٥٥).

ولقد بلغ من غزارة المادة التاريخية المتحصلة من لجان السجلات وتآليف خواص البحاث أن جهر في العهد الأخير غير واحد من كبار الثقات بتخوفه أن تفوق وفرة الإنتاج طاقة المؤرخين على الاستهلاك. لقد أصبح من المتعذر من عهد بعيد على من يعاني التاريخ أن يحيط بجميع المادة الحديثة التي ترد عليه كل عام بل كل يوم من البحاث وأمناء المحفوظات، وأصبح نطاق التخصص في التاريخ يضيق شيئًا فشيئًا حتى ليوشك لفظ «المؤرخ» بمعناه العام أن يبطل استعماله جملة واحدة،

---

(٢٣٠) **Migne** (١٨٠٠ – ١٨٧٥) قسيس وناشر فرنسي نشر المجموعة المذكورة في المتن (**Patrology**).

(٢٣١) **Jaffe** (١٨١٩ – ١٨٧٠) مؤرخ ألماني محقق أصدر المجموعة المذكورة في المتن.

(٢٣٢) **Potthast** (١٨٢٤ – ١٨٨٨) مؤرخ، ألماني عمل في نشر «السجلات البابوية»، **the Papal Regesta** ووضع كذلك «مكتبة تاريخ العصور الوسطى» التي تشتمل على أسماء مؤرخي العصور الوسطى وكتاباتهم.

(٢٣٣) **Hefele** (١٨٠٩ – ١٨٩٣) عالم لاهوتي ألماني كاثوليكي نشر تاريخ المجامع الدينية **Conciliengeschichte**.

(٢٣٤) **Hergenrother** (١٨٢٤ – ١٨٩٠) كان مثل صاحبه هفلى ألمانيا عالمًا باللاهوت وكاثوليكيا وله تآليف شتى في تاريخ الكنيسة.

ويوشك بمعناه الخاص «كمؤرخ الكنيسة» و«المؤرخ الاقتصادي» أن يزداد تخصصًا، وحتى ليخشى ألا يقوم على مر الزمن مؤرخ يهضم العلم الحديث ويصوغ منه فلسفة للتاريخ على وجه ما، ويحلق فوق الغاية فيتبين صورتها على كثرة ما بها من أشجار متنوعة لا ينالها الحصر.

الفصل السادس

رواد التاريخ الحديث

تأثير الفلسفة الوضعية – جهود كمت وبكل وميل وآخرين في رد التاريخ إلى مرتبة العلم الطبيعي – مقاومة كنجزلي وفرود ودرويسن وآخرين

كان يصاحب تقدم الطريقة العلمية، ونمو الروح البرئ من الهوى، وتجمع المواد التاريخية، تغير هام طرأ على تصور المؤرخين للتاريخ ووظيفته، فإنه عندما كان التاريخ معتبرًا شعبة من شعب الادب، أو خرافة بلغت حد النضج والتمام كما وصفها بعضهم، كان المؤرخون يرون أنفسهم أعلى من أن يعنوا بغير آمال وآلام الملوك والسادات، وأفعال القواد، وحيل الوزراء، وبذلك كاد التاريخ يحقق المثل الأعلى الذي نزع إليه كرلايل، والذي يجعل التاريخ لا يكاد يخرج عن كونه مجموعة من السير المختارة، والحق أنه لم يبلغ أحد شأو كرلايل، آخر الابتداعيين، في تخليد التصور البيوغرافي للتاريخ، وذلك بما دبجته براعته من مديح للأبطال وتمجيد لفردريك الكبير وتسبيح بحمد كرمول وتحقير صريح للعامة المغمورة العاطلة عنده من المحامد والخلال؛ إلا أن كرلايل كان يدير رحى معركة خاسرة، وكان هو على علم بذلك (علمه بمزاجه الصفراوي) بدليل حملاته المنكرة التي حملها في بعض مقالاته[٢٣٥] على الديمقراطية الآخذة في الظهور.

[٢٣٥] مثل مقاله **Shooting Niagara** الذي كتبه منددًا بالروح الذي كان يسود «مشروع قانون الإصلاح»، المقدم إلى البرلمان الإنجليزي سنة ١٨٦٦.

لقد كان تقدم الديمقراطية، وذيوع الاشتراكية وبدو القلق الاقتصادي، وحركات شعبية أخرى ظهرت منتصف القرن التاسع عشر، مما أفضى إلى قيام تصور جديد للتاريخ، ولا أدل على ذلك من أن مؤرخين أمثال روشر(٢٣٦) في ألمانيا؛ وأفنل(٢٣٧) في فرنسا، ومكولي في إنجلترا، مدوا نطاق بحثهم وحاولوا أن يضمنوا تواريخهم العامة حياة الشعوب بمناحيها المتعددة، على أن التجارب سرعان ما دلتهم على أنه لكي يصل المؤرخ إلى نتيجة ما، فعليه أن يتخصص في ناحية بعينها، خذ لذلك مثلًا مكولي فإنه أنشأ يكتب تاريخًا لإنجلترا في الفترة الواقعة بين عامي ١٦٨٨ و١٧٦٠ ولكنه لم يتجاوز عام ١٧٠٠ بعد أن كتب خمسة مجلدات نشرت فيما بين عامي ١٨٤٩ و١٨٦١، وقد رؤى أنه لكي يتم مشروعه الأصلي بهذه النسبة فلابد من مداومة العمل مائة سنة أخرى وإصدار أربعين مجلدًا فوق الخمسة التي نشرت فعلًا، ويتجلى تحقق مبدأ وجوب التخصص والتركيز في إنجلترا في العالمين اللذين تزعمًا حركة التاريخ في أواسط العهد الفكتوري وهما ا. ا. فريمان(٢٣٨) وجون سيلي(٢٣٩) فقد أخرجا من دائرة البحث التاريخي في عنف وشدة كل ما لا يمت إلى السياسة بسبب، وأصبح شعار مؤرخي ذلك الزمان قولهم «إن التاريخ سياسة الماضي، والسياسة تاريخ

---

(٢٣٦) **RoscherK**، من مؤرخي ألمانيا في القرن التاسع عشر، وأحد تلاميذ رنكي الذين أخذوا عنه في قاعة بحثه **Seminar**.

(٢٣٧) **Avenel** مؤرخ فرنسي عاش في القرن التاسع عشر، من أهم كتبه دراسته لريشليو.

(٢٣٨) **E. A. Freeman** (١٨٢٣ – ١٨٩٢)، مؤرخ إنجليزي أهم كتبه «تاريخ الفتح النرمندي»، وكان يرى في التاريخ الأوروبي وحدة تقوم على تاريخ رومية.

(٢٣٩) **John Seeley** (١٨٣٤ – ١٨٩٥)، مؤرخ إنجليزي من أهم كتبه «سيرة اشتاين» الوزير البروسي الشهير.

الحاضر»، ولم ير ذوو الجد منهم من المصادر ما يستحق عنايتهم سوى الأوراق الرسمية، إلا أن هذا التصور الضيق الذي رد التاريخ مجرد مادة يستعان بها في إعداد النشء لعضوية البرلمان، قد أعلن لورد أكتن الثورة عليه بشكل رائع في محاضرته الافتتاحية المشهورة التي ألقاها في يونيه من سنة ١٨٩٥ إذ قال: «إن اختصاصنا يتناول ما هو أبعد مدى من شؤون السياسة، وهو غير خاضع لتشريع الحكومات. إن من واجبنا أن نحيط بحركات الأفكار التي هي علة الحوادث العامة لا نتيجتها، وأن نجعلها نصب أعيننا دائمًا»، بهذا المبدأ الذي أعلن على هذا النحو قصر لورد أكتن المحاضرة الأولى من سلسلة محاضراته العظيمة الخاصة بالثورة الفرنسية على الحركات الفكرية التي رأى الثورة نجمت عنها في القرن الثامن عشر، إلا أن نزعة لورد أكتن العقلية العميقة، بل الروحانية، (ويُماثلها عند دولنجز[٢٤٠] الألماني توكيده ما للدين من قوة مؤثرة في التاريخ) قد استتبعت هي الأخرى رد فعل لها ، إذ قامت مدرسة الاشتراكيين من أتباع كارل مركس[٢٤١] فقالت بالتصور الاقتصادي أو المادي للتاريخ ودعت إليه. ثم إن ما للعقل الباطن من سلطان قوي، وما للطبيعة البشرية والجماعات المنظمة من الدوافع الغريزية، كل ذلك أعلنته مدرسة قوية من عُلماء النفس الاجتماعيين بزعامة كارل لمبرخت[٢٤٢] الألماني. أما في وقتنا الحاضر، فمتفلسفة المؤرخين

---

(٢٤٠) **Doillinger** (١٧٩٩ – ١٨٩٠) لاهوتي ومؤرخ ديني ألماني، ثارت خصومة عنيفة بينه وبين البابوية من أجل العقيدة القائلة بعصمة البابا، ومن كتاباته التاريخية «دراسات في التاريخ الأوروبي».

(٢٤١) **Karl Marx** (١٨١٨ – ١٨٨٣)، الفيلسوف والاقتصادي الألماني الكبير صاحب كتاب «رأس المال».

(٢٤٢) **Karl Lamprecht** (١٨٥٦ – ١٩١٥) مُؤرخ ألماني كان أُستاذًا بجامعة ليبزج. من أهم كُتبه «تاريخ ألمانيا». وكتاب آخر عنوانه «ما التاريخ؟».

ومفكروهم يعترفون بأن عاملًا واحدًا لا يستقل بتفسير ما للمجتمع الإنساني من ظواهر مًتعددة، وأن لكل من الخلق والبيئة نصيبًا من ذلك التفسير خاصًا به، وأنه لا الجبر ولا الاختيار بمعطينا بمفرده كل الحق من حيث بيان مصدر أعمال الإنسان، وأن الأفكار والدوافع الغريزية والروح والجسم كل أولئك حقائق نهائية لا يتأتى التعبير عن بعضها بنفس الألفاظ التي يُعبر بها عن بعضها الاخر.

وعلى الرغم مما كان بين مُؤرخي القرن التاسع عشر من خلاف في تصور التاريخ فإنهم كافة وجدوا في المبدإ العظيم، مبدإ النشوء، الذى جاءهم من عالم العلم والفلسفة ما وحد أعمالهم وبث فيها الحياة.

لم تكن فكرة النشوء و وهى أساس تفكير القرن التاسع عشر، فكرة جديدة بحال من الأحوال. ذلك بأن تصور العُلماء شؤون هذا العالم على أنها عملية نمو وتكشف تدريجي معارضٍة لفكرة أخرى تصورها على أنها تعاقب محدثات يقوم بعضها على أنقاض بعض ولا ارتباط بين بعضها وبعض، نقول إن هذا التصور قديم قدم أرسطو نفسه، وأنه كان من غير شك من جملة الفوارق العديدة بين فلسفته وفلسفة سلفه العظيم أفلاطون. غير أن الفكرة كان ينقصها أن تحرر وتحقق في ميدان العلم الطبيعي على نحو ما كان يعرفه القدماء، ومن ثم بقيت افتراضًا محضًا، وظلت كامنة في مذهب وحدة الوجود الرواقي حتى انبثاق فجر العصور الوسطى، ثم عبرت ألف سنة وهي مغمورة بكشف[٢٤٣] أغسطين

(٢٤٣) **Transcendentalism** والمراد بها البحث في المعرفة التي يصل إليها الإنسان بالبداهة **a priori** لا المكتسبة بالتجارب **a posteriori**.

ومدرسته، ثم انبعثت مرة أُخرى كغيرها من آراء القدماء إبان النهضة، وكان أشهر من فطن لها جيوردانو برونو(٢٤٤) الذي جرت عليه كثرة الخطأ في الحكم أن أحرق حيًا في رومية عام ١٦٠٠. ومن ذلك الوقت لم تغب فكرة النشوء بصفة مُطلقة عن التفكير الأوربي. ومن الذين يلحظ في تآليفهم أثر وجودها ونفوذها اسبينوزا(٢٤٥) ولوك(٢٤٦) وفيكو (خاصة) وليبنز(٢٤٧) ولسنج(٢٤٨). على أن فكرة النشوء لم تتبوأ مكانها الممتاز إلا في أخريات القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر، أي عندما آلت زعامة الفلسفة إلى كانت(٢٤٩) وشليجل، وهجل، على هذا الترتيب. أما هجل فكان مبدأ التطور عنده مفتاحًا لتاريخ العالم، إذ رأى عملية نمو الجنس الإنساني سياسيًا إنما هي بأسرها تحقق تدريجي لمعنى الحرية. والحق أن

---

(٢٤٤) **Giordano Bruno** (١٥٤٨ – ١٦٥٠) فيلسوف إيطالي، كان في أول الأمر راهبًا دومينيكيا ولكنه هاجم بعض عقائد النصرانية، فأخرج من إيطاليا، فجعل يتجول في ممالك أوربا ويُؤلف الكتب التي يُهاجم فيها النصرانية بوجه عام، مما أدى في النهاية إلى مُحاكمته أمام محكمة التفتيش برومية وإعدامه إحراقًا بالنار.

(٢٤٥) **Spinoza** (١٦٣٢ – ١٦٧٧)، فيلسوف يهودي هولندي، عُرِفَ باستقلال الفكر ونقد مصادر البحث ولو كانت التوراة والإنجيل، وقد جر ذلك عليه الاضطهاد الشديد. كتب كثيرًا فيما وراء الطبيعة والأخلاق والسياسة، وهو معدود من الأقطاب الذين رفعوا منار الفلسفة والنقد العالي في العصر الحديث.

(٢٤٦) **Locke** (١٦٣٢ – ١٧٠٤) فيلسوف إنجليزي كبير، كتب في أُصول الحكم والاقتصاد والدين والتربية والفلسفة بحوثًا كبيرة لا تزال مرجع البحاث في هذه الموضوعات.

(٢٤٧) **Leibniz** (١٦٤٦ – ١٧١٦) فيلسوف ورياضي ألماني. كتب في السياسة والرياضيات والفلسفة كتبًا قيمة.

(٢٤٨) **Lessing** (١٧٢٦ – ١٧٨١) نقاد ودرامي ألماني، من أشهر كُتبه كتاب في الفنون الجميلة اسمه «لاوكون» **Laokoon**.

(٢٤٩) **Kant** (١٧٢٤ – ١٨٠٤) فيلسوف ألمانيا الأكبر. أنشأ مذهبًا فلسفيًا عميقًا يُضاف إليه، ومن أهم كُتبه الفلسفية «نقد العقل المجرد».

التصور النشوئي للتاريخ أصبح من خصائص المدرسة الابتداعية في مجموعها، فقد كان مُطابقًا كل المطابقة لرغبتهم أن يردوا على العصور الوسطى مقامها. وقد استطاعوا أن يدللوا بواسطته على أن من العبث أن يُقال مع التعقليين إن الفترة الواقعة بين قسطنطين وكولمب مجرد هوة فاصلة بين عصري استنارة يرجعان إلى أصل واحد، وأن الواجب أَن نلحظ وراء مظاهر الأشياء غرضًا واحدًا ثابتًا يعمل على التحرر والظهور بنفسه ببطء في ذلك العصر وفي كل عصر آخر.

إن مبدأ النشوء الذي اصطفاه الفلاسفة والمؤرخون على هذا النحو، قد اصطفاه مُفكرون آخرون في ميادين أُخرى للبحث والتفكير. فالرجعيون من رجال اللاهوت وجدوا في النظرية القائلة «بنمو العقيدة المسيحية» سلاحًا ماضيًا يصدون به حملات الإنجيليين الذين كانوا يذهبون إلى أن الحقيقة الكاملة النهائية قد جاء بها العهد الجديد. واتخذ هربرت سبنسر(٢٥٠) من مبدأ النشوء أساسًا لنظام من التفكير شامل يقوم عليه البحث عن تفسير للصروف التي آلت بها جميع الظواهر إلى ما هي عليه الآن. إلا أن عقيدة النشوء من حيث هي الفكرة الهادية في القرن التاسع

(٢٥٠) Herbert Spencer (١٨٢٠ – ١٩٠٣) هو فيلسوف إنجلترا العلمي الأشهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. صاغ فلسفته على مُقتضى اتجاه العلم في ذلك الزمن، ويظهر ذلك في كُتبه «أُصول علم الحياة» و«أُصول علم النفس» و«أُصول علم الاجتماع» و«أُصول علم الأخلاق».

عشر لم تتقرر إلا بعد أن أظهر ليبل[٢٥١] في الجيولوجيا، ودارون[٢٥٢] في البيولوجيا، الطُرق العملية التي تم بها نمو الدنيا وتكون الأنواع.

لقد صيرت عقيدة النشوء علمًا كل فرع من فروع المعرفة اليقينية، وأصبح من المتعين أن تبحث من جديد ظواهر الطبيعة وطبيعة الإنسان والاجتماع والدين ليعلم كيف اكتسبت هذه الظواهر خصائصها الحاضرة. ولما كان يُصاحب جميع العمليات التي يُمكن تتبع نشوئها «قانون» ثابت بمعنى اطراد تتابع العلل ومعلولاتها، فقد ظهر أن في وسع الناس بقدر كافٍ من المهارة أن يصلوا إلى هذا النوع من «القوانين» في كل ميدان من ميادين البحث، وذلك ما أجمل جون استيورت ميل[٢٥٣] التعبير عنه بقوله: «إن جميع الظواهر على الإطلاق تحكمها قوانين غير قابلة للتخلف ولا تعترضها إرادة ما، طبيعة كانت أو فوق الطبيعة[٢٥٤]. وعلى هذا الرأي جعل ميل غرضه الأساسي في الحياة أن يصل إلى «القوانين» الثابتة التي يقوم عليها نشوء الإنسان أخلاقيًا واجتماعيًا، فكان غرضة من كتاب «المنطق» (١٨٤٣) بيان الطريقة المثلى لبحث علوم الإنسان. كما أن تحوله بعد

---

(٢٥١) Lyell (١٧٩٨ – ١٨٧٥) جيولوجي إنجليزي كبير، ضمن مُبتكراته الجيولوجية، كتابه القيم «أُصول الجيولوجيا».

(٢٥٢) Darwin (١٨٠٩ – ١٨٨٢) هو العالم الطبيعي الإنجليزي الكبير صاحب كتاب «أُصول الأنواع».

(٢٥٣) John Stuart Mill (١٨٠٦ – ١٨٧٣) فيلسوف واقتصادي إنجليزي كبير اشتهر ببحوثه في المنطق والاقتصاد.

(٢٥٤) جاء في كتاب أوغست كمت والفلسفة الوضعية: الطبعة الثانية ص ١٢ «يعترض على عبارة ميل من وجوه: ١- إن كلمة «تحكمها» غير مُلائمة؛ فالقوانين الطبيعية ليست أوامر بل مجرد تعميمات. ٢- إن قوله «غير قابلة للتخلف» يحسن أن يُقال بدلًا منها «غير مُتخلفة». ٣- ثم إن الإرادات طبيعية كانت أو فوق الطبيعية، هي من الظواهر التي يطلب إلى العلم توضيحها، ولما كانت موجودة ومُؤثرة فهي ليست «اعتراضات» خارجة عن مجرى الطبيعة». المؤلف

ذلك إلى الاقتصاد السياسي (١٨٤٤و١٨٤٨) يرجع إلى اعتقاده بأن في العلم بأحوال الإِنسان من حيث هو منتج للثروة ومستهلك ومبادل لها «قوانين» من النوع الإيجابي الصحيح لا يتعذر الوصول إليها، مثال ذلك «قانون تناقص الغلة» و«قانون السكان» لملثوس[٢٥٥] و«قانون الأجور» لريكاردو[٢٥٦].

وكان ميل بمحاولته النهوض بعلوم الإنسان إلى مستوى العلوم الطبيعية أو النزول بها إليه، إنما يقفو أثر أستاذه الفرنسي العظيم أوجست كمت[٢٥٧] (١٧٩٨ – ١٨٥٧). لقد شاد كمت صرح الفلسفة الشامخ فوق أُسس طبيعية باطلاعه الواسع وجهوده المتصلة. وقد أخرج اللاهوت وما وراء الطبيعة من عالم الرياضيات والفلسفة، وهما عنده خارجان آخرة الأمر من دائرة كل علم آخر حتى علم الاجتماع. ثم نصب نفسه بعد ذلك للوصول إلى «القوانين» التي تُفسر غرابة أطوار الإنسان في حالي التفرد والاجتماع. لكن كمت لم يكن بالمؤرخ المستقرئ للحوادث، بل فيلسوفًا يقتاس الأمور بأشباهها، فلم يُحاول قط بصفة جدية أن يعرض عرضًا وضعيًا ذلك السجل المعقد، سجل نشوء الإنسان هنا فوق سطح هذه البسيطة. إلا أن ما لم يقدم عليه هو نفسه أقدم عليه تلميذ له إنجليزي اسمه

---

(٢٥٥) **Malthus** (١٧٦٦ – ١٨٣٤) اقتصادي إنجليزي له «رسالة في السكان» ذهب فيها إليها أن سكان العالم يزيدون بنسبة تزيد على نسبة زيادة مواد المعيشة، وأن الواجب يقضي بضبط النسل حتى يكون هُناك تعادل بين النسبتين، وقد ألهم ببحوثه العالم الطبيعي دارون والعالم الاقتصادي ريكاردو.

(٢٥٦) **Ricardo** (١٧٧٢ – ١٨٢٥) اقتصادي إنجليزي ضمن آراءه في الأُجور وأعمال المصارف كتابه «أُصول الاقتصاد السياسي والضرائب».

(٢٥٧) **Auguste Comte** هو الفيلسوف الفرنسي المشهور ضمن آراءه المذكورة في المتن كتابه «الفلسفة الوضعية».

توماس هنري بكل[٢٥٨] (١٨٢١– ١٨٦٢) ظهر كتاب «تاريخ الحضارة في إنجلترا» لبكل في غصون سنى (١٨٥٧– ١٨٦١) وهو يعد مقدمة لمشروع واسع النطاق وثمرة جهود عشرين سنة أنفقت في اطلاع واسع وتفكير ملموم مركز. وقد قصد بكل في هذه المقدمة إلى أن ينشئ على مقتضى أصول فن الإحصاء علمًا وضعيًا للاجتماع الإنساني. وكان ذلك منه دعوى عريضة أحدثت بما تضمنته من تصور طريف، وعرض علمي وتهجم على الآراء الدينية والفلسفية السائدة، ضجة قوية وجدلًا طويلًا حارًا. وكان الجدل أشد ما يكون حول مسألة الجبر والاختيار، وهي نفس المسألة التي يقول مِلْتن أن الملائكة الذين أخرجو من الجنة قبل خلق الإنسان خاضوا فيها بمجرد أن أفاقوا من غشيتهم التي أصابتهم عندما رأوا أنفسهم في سواء الجحيم. فحمل تشارلز كنجزلى[٢٥٩]، وكان إذ ذاك حديث عهد بكرسي الأستاذية الملكي للتاريخ بجامعة كمبردج، على رأي بكل في الجبر، وذلك في محاضرته الافتتاحية التي تكلم فيها على «مدى تطبيق العلم اليقيني على التاريخ» (١٨٦٠). لكن حملة كنجزلي لم تُؤثر تأثيرًا ما، وكان أقدر منها وأقوى أثرًا مُحاضرة أُخرى ألقاها جيمس أنطوني فرود[٢٦٠] في المعهد الملكي عام ١٨٦٤ بعنوان «علم التاريخ»، وقد نشرت بعد في المجلد الأول من كتابه «دراسات قصيرة». على أن أشد الردود هدمًا لنظرية بكل – لكونه أشدها بُعدا من إنكار اللاهوت واطراحه – رد درويسن المعنون بـ«النهوض بالتاريخ إلى مستوى العلم اليقيني» (١٨٦٢)

---

(٢٥٨) Thomas Henry Buckle.

(٢٥٩) Charles Kingsley (١٨١٩ – ١٨٧٥) قسيس وروائي وشاعر إنجليزي، له قصة «هيباتيا» وكتاب «الأبطال».

(٢٦٠) James Anthony Froude (١٨١٨ – ١٨٩٤) مُؤرخ إنجليزي، كان أُستاذًا للتاريخ الحديث بأُكسفورد، عُرِفَ بسلاسة الأُسلوب وبلاغة الوصف وبتناول التاريخ من الناحية الشخصية.

وكتابه «مناهج التاريخ» (١٨٥٨). يقول درويسن: ما الفائدة من كل ما ساقه بكل من استقراء عريض الدعوى؟ أية قوانين وصل إليها وصاغها؟ ثم يورد بعض قوانين بكل ويعقب عليه بقوله: «إن قوانين من هذا القبيل يُمكن الوصول إلى عشرات منها كل يوم بنفس التعميم الذي جرى عليه بكل، وليس منها ما يزيد عمقًا وفائدة على قولهم المأثور (إن حضارة الأُمم تُقاس بكمية الصابون الذي تستنفده).

ثم تتجلى غمرة هذا الجدل كله عن حقيقتين هامتين تتضمنان ما أشرنا إليه في الفصل الأول من بحثنا هذا، وهو أن التاريخ يختلف عن العلوم الطبيعية من حيث طرائقه وتعميماته: (١) فهو من حيث طرائقه علم نقد لا علم مُلاحظة وتجربة. (٢) أما من حيث تعميماته، فإنه لما كانت هذه التعميمات مُتصلة بعالم العقل لا عالم المادة، وكانت الغلبة في عالم العقل الذي هو عالم الشعور والحرية الظاهرية للباعث دون القوة، فإن هذه التعميمات لا يُمكن أبدًا ان يكون لها من الدقة والعموم ما يدل عليه لفظ «قانون».

الفصل السابع

فوائد التاريخ

التاريخ وبرامج التربية والتعليم – فائدة التاريخ للفرد من حيث هو فرد– التاريخ والحياة المدنية والحياة العامة – ضرر اتخاذ التاريخ وسيلة لنشر الدعاية السياسية –فوائد التاريخ في إعداد الفرد للحياة المدنية والحياة السياسية

إن القول باستحالة النهوض بالتاريخ إلى مرتبة العلم الطبيعي أو النزول به إليها قد أثار مسائل خطيرة تتصل بوظائفه وخاصة مكانته من التربية والتعليم. فأما بكل وأشياعه فقد رفعوا الصوت عاليّاً مُعلنين أنه إذا لم يُعتبر التاريخ علمًا وضعيًا فلا قيمة له على الإطلاق في بناء الأخلاق وهداية الناس في هذه الحياة. ولاح على الذين يطمحون إلى المثل العُليا أنهم يميلون هذا الميل ويرون هذا الرأي. قال الرئيس كيرد[٢٦١] من خطبة له ألقاها في جامعة جلاسجو عام ١٨٨٤ وكان موضوعها «دراسة التاريخ» «إن ضرورة جعل التاريخ ضمن المنهج الجامعي يتوقف الفصل فيها على جواب هذا السؤال: :هل يحتمل التاريخ التناول العلمي أو لا يحتمله؟ إن المعرفة التي لم ترتفع بعد عن مستوى الوقائع والجزئيات، ولم تصبح بعد في قبضة المبادئ العامة، أو لم تصبح بعد يوضحها ويطامن بين أجزائها قانون من القوانين، لا تعتبر في رأيي أداة صالحة للتعليم العالي». ثم

(٢٦١) Caird (١٨٣٥ – ١٩٠٨) فيلسوف ولاهوتي بريطاني، كان أُستاذاً الفلسفة الأخلاقية بجامعة جلاسجو، وله بحوث شتَّى في فلسفة كانت الألماني.

يأخذ الرئيس كيرد في الإجابة عن هذا السؤال: إلى أي حد وبأي معنى يُمكن اعتبار التاريخ علمًا؟ فيُؤديه البحث إلى هذه النتيجة «إن التاريخ، وإن كان لا يُمكن اعتباره علمًا يقينيًا على نحو ما تعتبر الآليات والبصريات وحتى علما النبات ووظائف الأعضاء، إلا أنه من حيث طرائقه ونتائجه آخذ على أقل تقدير يشبه قوي جدًا من العلوم المذكورة يجيز لنا أن ننحله اسم العلم»، أما وقد اعتبر الرئيس كيرد التاريخ علمًا بوجه ما فهو يرى أنه يُمكن الانتفاع به في توسيع المدارك وتعويد الناس الإنصاف في الحُكم ووضع الأشخاص والحوادث في وضعها الصحيح على مسرح الشؤون العامة. ثم يقول: «إن التاريخ حري بأن يكسبنا تصورًا صحيحًا لما هو عارض موقوت بالقياس إلى ما هو أبدي باق في حياة الإنسان».

وقد لقى رأي الرئيس كيرد في ماهية التاريخ من حيث هو علم قبولًا عامًا لما ينطوي عليه من سداد واحتراس. أما كلامه على فوائد التاريخ فلم يلق مثل تلك الخطوة العامة. وفي أيامنا هذه لا يزال خلاف كثير في الرأي دائرًا حول العلاقة بين التاريخ والتربية وصلته بالشؤون العلمية لبني الإنسان. فإنه إذا كانت الحوادث لا تتكرر، وكان من المستحيل الوصول إلى تعميمات تنظم الظواهر التاريخية، فليت شعري أية فائدة يُمكن أن تُجنى من دراسة التاريخ على الإطلاق؟ ونجيب عن ذلك فيما يلي:

أولًا– من حيث مكانة التاريخ من تربية الفرد. إن القيمة العلمية لدراسة التاريخ خارجة عن موضوع البحث، فكثير من المواد التي لا تُطبق تطبيقًا ظاهرًا على شؤون الحياة قد تكون لها قيمة تربوية من حيث كونها

ترهف الأذهان وتُنمي المدارك، ومن علماء البيداجوجيا من يذهب إلى أن المواد الصالحة للدراسة المدرسية والجامعية إنما هي تلك التي لا تشوب الاعتبارات النفعية صفو الاشتغال بها. يقول سيرت ج. روبر[٢٦٢]: «إن خير أنواع التربية ما نمى أعظم مقدار مُمكن من قوى العقل ومداركه»، ومع ذلك فأغلب عُلماء التربية مُجمعون على أن أغراضًا أُخر غير مجرد تنمية القوى العقلية يجب أن تكون مناط عناية المربين ومحل اعتبارهم. إن أولئك الذين حشوا إهابهم عقل وعقل فقط، هم خطر على المجتمع يجب أن يحسب له كل حساب. من هؤلاء من كُتِبَ عليهم أن يكونوا قُطاع طُرق، يسطون على الناس من سياراتهم، وماليين وكبراء تجار، ونقباء نقابات، ورجال سياسة. ينبغي أن تُنمي التربية في الإنسان قوة أخلاقية قادرة على كبح جماح العقل إذا ما طغى ولج في طغيانه. ينبغي أن تزود التربية الإنسان بقدر كافٍ من المهارة الفنية يُمكنه من كسب قوته. ينبغي أن تعلم التربية الفرد كيف يقوم بواجبة من حيث هو ناخب وإداري نحو الجماعة التي ينتمي إليها.

إلى أي حد تُمكن الاستعانة بالتاريخ في تحقيق أي غرض من هذه الأغراض التربوية العامة؟ أما السير راي لنكستر[٢٦٣] فيعتبر التاريخ من هذه الناحية عديم الجدوى بالمرة، ولقد قال في مُحاضراته التي موضوعها

---

(٢٦٢) **T.G Rooper** (١٨٤٧ – ١٩٠٣) مرب إنجليزي، له بحوث شتَّى في التربية وأثر حسن في نظام التربية في إنجلترا.

(٢٦٣) **Sir Ray Lankester** (١٨٤٧ – ١٩٢٩) عالم بيولوجي وأُستاذ بريطاني. وضع كُتبًا شتَّى في علم البيولوجيا. قصد في بعضها إِلى تقريب العلم من ذهن القارئ العادي.

«مملكة الإنسان». (١٩٠٧) «نحب أن نرى نظام التربية القائم على دراسة التاريخ والآداب القديمة قد عدل عنه بالمرة إلى نظام آخر يقوم على العلوم الطبيعية»، إلا أنه يسلم بأن «قراءة التاريخ لذيذة» وأن التاريخ له قيمته «كمسلاة» يتسلى بها. ومن ناحية أُخرى فإنَّا نجد كتابًا أمثال السيدين لنجلوا وسنيوبوس في فرنسا، وهربرتهايم في ألمانيا، والأستاذ ج. و. أللن[٢٦٤] في إنجلترا، يرون في التاريخ أداة لرياضة العقل تجل من التقويم والتقدير. فيقول الأستاذ أللن «إن دراسة التاريخ تُنشط الفكر وتفنقه وتُساعده بطُرق شتَّى»، وهو يستهجن مع ذلك كل مُحاولة تربي إلى استخدام التاريخ في تحقيق أغراض لها صلة بالعواطف أو الأَخلاق أو السياسة. ثم إننا نجد رجالًا آخرين مُمتازين من أظهرهم لورد بولنجبروك، والأسقف استبز، ومستر فرود، يرون أن الفائدة الأخلاقية هي بالدقة ما يجعل للتاريخ قيمة من حيث التربية. يقول بولنجبروك «لقد بان لي أن دراسة التاريخ دون سواها أصلح الدراسات لتعويد الإنسان الفضائل الخاصة والعامة». وقليل من الناس من يُعارض اليوم في وجوب استخدام التاريخ أداة لإلقاء دروس في الأخلاق خارجة عن نطاق البحث التاريخي. وأقل منهم من ينكر أن دراسته توسع أُفق العقل وترفع مستوى الأخلاق بوقفها الطالب على كل ما هو عظيم سام، وتنبه الخيال العاطف، وتبرز العلاقة بين أخلاقية العمل ومصير العامل، وتبعث في نفس القارئ كما يُلاحظ لمبرخت «معاني الأخذة والروعة تلقاء نواحي النشاط الإنساني التي لا تُحصى وخطره الذي لا يتناهى». بل إن التاريخ عند ر. د. إمرسن أعلى

(٢٦٤) J.W.Allen.

من ذلك وأسمى، فهو يرى أن ثم تماثلًا تامًا بين حياة الفرد وتاريخ الإنسانية، فالإنسان هو العالم الأصغر، والإنسانية هي العالم الأكبر، ومن ثم يستطيع الفرد من طريق دراسة التاريخ أن ينفذ إلى أسرار شخصيته المحجوبة عنه. إن الكل يتضمن الجزء، والجزء يدل على الكل، والتاريخ كله مُضمن في العقل الفرد، وخُلق كل فرد ومصيره واضحان في التاريخ. لا شك أن إمرسن يقترب بهذا القول من حدود السخف والتخليط، ومع ذلك فمن المحقق أن العلم بالتاريخ من حيث هو مُجمع الحوادث ومِلاكها لا يستغني عنه من يريد تكوين تصور كامل مُتزن للعالم بوجه عام. إن التاريخ هو وحده القادر على أن يجلو لعين الباحث ميدان الحياة كاملًا غير منقو ، والتاريخ هو وحده القادر على أن يُمكن الظاعن الذي يقضي «يوم راحت» تحت خيمة هذا الوجود الخفية من أن يطلع على غرائب ما يحيط به من مظاهر الأبدية.

ثانيًا– من حيث مكانة التاريخ من التربية المدنية والحياة العامة. هل للعلم بالتاريخ قيمة عملية حقًا؟ ما الصلة بينه وبين السياسيات؟ أما أن ولاة الأُمور في مُعظم دول العالم يرون تدريس التاريخ أمرًا هامًا، فذلك ما تدل عليه عنايتهم بمراقبة كُتب التاريخ المدرسية التي تدرس في المدارس، وأنهم يُحاولون أن يوقعوا لمدرسي التاريخ النغمة التي يجرون عليها في دروسهم. لقد قدم تقرير إلى مجلس مقاطعة لندن قبيل الحرب الكبرى جاء فيه: «يطلب إلى المدرس في فرنسا أن يرغِّب في الجمهورية القومية وينفِّر من الملكية والدولية؛ وفي بروسا يطلب إليه في صراحة أتم أن يشيد بمزايا الملكية مُمثلة في آل هُو هنزلرن القائمين بالحكم ، وأن يُنبه على خطر

الاشتراكية الحديثة؛ أما في كوينزلند، فيطلب إليه أن يُؤسس دراسة التاريخ كلها على عقيدة تقديس الملكية العامة». ربما كانت تجارب العشرين سنة الأخيرة قد عملت بعض الشى على زعزعة اعتقاد الساسة في قيمة اتخاذ المدارس أمكنة لنشر الدعاية؛ ومع ذلك، ومع أن الحرب والثورة قد وضعا أوزارهما وتجلت عبرهما، فما زلنا نرى ألمانيا ماضية في التنغيم لمدرسيها وإن كانت النغمة الجديدة الجمهورية التعاهدية، وما زلنا نرى حكومة السوفييت في روسيا تخضع كل برامج مدارسها وجامعاتها لفكرة تلقين الطلاب مبادئ البلشفية، وما زلنا نرى إيطاليا تجعل مبادئ الفاشستية أساس دراسة التاريخ في معاهدها العلمية. قد يصل رجال السياسة مع الزمن إلى أنه لا شيء أحرى بتفويت الغرض المقصود منه من بث الدعاية في المدارس، وإلى أن أكره الأشياء إلى نفوس الطلاب هي تلك التي يجرعهم إياها المعلمون تجريعًا، وإلى أن العقائد التي يصبح التلاميذ أميل إلى الشك فيها بتقدمهم في السن هي بالدقة تلك التي فرضتها عليهم في طفولتهم سلطة قوية قاهرة. ذلك درس قد ينفع تذكره عصبة من الساسة مُوقرة في جميع البلدان تحرص على الاستعانة برجال التربية في مُحاولتها استخدام مدرسي التاريخ في المدارس العامة دعاة إلى السلام، أو الشعوبية، أو غير ذلك من القضايا التي نرى فيها خيرًا.

فإذا صح أن التاريخ ينبغي ألا يُستخدم، أو لا يُمكن أن يُستخدم – وهو المحتمل –، استخدامًا فعالًا في نشر الدعاية، فأية فائدة يُمكن أن تجبيها منه التربية المدنية والسياسية؟ لقد أجاب الأستاذ سيلى عن هذا السؤال جوابًا شافيا وافيًا فقال من محاضرة له في «تدريس العلوم

السياسية» (١٨٦٩) «إن التاريخ مدرسة السياسة، بدون مقدار يسير منه على أقل تقدير لا يُمكن الإنسان أن يُعنى عناية معقولة بالشؤون السياسية، وبدون حظ موفور منه لا يُمكنه أن يصدر حكمًا معقولًا في أي شأن من شؤونها، إن التاريخ دراسة هامة لكل مدني، بل هو الدراسة الهامة الوحيدة الخليقة برجال الحكم والتشريع»؛ فإذا سألنا أنفسنا بدقة أتم، على أي نحو تتوفر للتاريخ هذه القيمة المدنية والسياسية التي يتمسك بها الأُستاذ سيلي كل هذا التمسك؟ فإني أرى جواب ذلك يكون بتناول التاريخ من ثلاث نواحٍ:

(أولًا) من حيث هو مدرسة الطريقة السياسية.

(ثانيًا) من حيث هو مستودع التقاليد السياسية.

(ثالثًا) من حيث هو أساس الرقي السياسي.

(١) التاريخ من حيث هو مدرسة لتعليم طريقة البحث السياسي:

من الصحيح نسبيًا قولهم إن التاريخ عبارة عن سياسة الماضي، وإن السياسة تاريخ الحاضر، فموضوع التاريخ والسياسة واحد، وكلاهما يقوم على وقائع غير مُعينة، وكلاهما يُحاول أن يصل إلى البواعث المحركة المستترة وراء ما للوقائع من حجب مشكوك فيها. هما علمان اجتماعيان نفسيان ليس موضوعهما ظواهر محدودة مطردة لطبيعة فاقدة الإحساس، ولكنه عبارة عن حركات لا تُحصى لشعوب الأرض، وخلجات لا تُستقصى لعقول الجماعات. وكلا السياسي والمؤرخ لا مندوحة له عن الاستنباط من مواد غير مستيقنة، وكلاهما غير قادر بحال على أن يتجاوز من مراتب الحقيقة مرتبة الاحتمال. إن من أوائل الدروس التي يتعلمها المؤرخ لأول شروعه في بحث تيار مُعين من الحوادث أن يعلم أن من الصعاب الكأداء التي لا سبيل إلى التغلب عليها أن يصل إلى الحقيقة المطلقة الثابتة، وأمثلة هذه الصعاب كثيرة نكتفي بالتدليل عليها بالمثل الآتي المستمد من أحدث الماجريات. عندما كان مستر لويد جورج رئيسًا للوزارة الإنجليزية زار مجلس العموم رسولا حكومة السوفييت مسيو كراسين(٢٦٥) ومسيو كامنف(٢٦٦) ليسمعا خطبته عن بولونيا، وإلى القارئ أقوال شهود عيان هم مندوبو جرائد لندن المسائية الأربع التي صدرت في نفس اليوم الذي أُلقيت فيه الخطبة المذكورة.

---

(٢٦٥) M. Krassin

(٢٦٦) M. Kameneff

ايفننج استندارد	استار	ايفننج نيوز	بال مال غازيت
كان حديثهما ينم عن مجرد معرفة محدودة باللغة الإنجليزية، ولكن كان يظهر عليهما أنهما فاهمان كل كلمة قالها مستر لوبد جورج، بل كانا أحيانًا يعلقان على قوله بتعليقات فيها حياة.	استطاع كراسين أن يتتبع كل كلمة قالها مستر لويد جورج، أما زميله فلأنه لا يتكلم الإنجليزية، كان كراسين كل بضع دقائق يميل عليه ويهمس في أذنه بترجمة ما يقال.	إنهما لم يتبادلا ملحوظة واحدة أثناء كل خطابة الرئيس.	كان يبدو على رسولي السوفييت وخصوصًا مستر كراسين شيء من القلق، ولاح عليهما أنهما أكثر اهتمامًا بما يرينا منهما بما يسمعان، ولكن بلغني أن ذلك راجع إلى تعذر متابعتهما كلام رئيس الوزارة.

فيرى القارئ أن بين هذه الروايات المباشرة التي تتناول الحادث الذي نحن بصدده تضاربًا في الأداء لا يمكن معه التوفيق بينها، (فأولًا) هل استطاع مستر كراسين أو لم يستطع أن يتابع في سهولة خطبة مستر لويد جورج؟ (ثانيًا) هل استطاع مستر كامنف أو لم يستطع فهم الخطبة على الإطلاق؟ (ثالثًا) هل عني الرسولان أحدهما أو كلاهما بالخطابة أو لم يعنيا؟ و(أخيرًا) هل كلم أحدهما الآخر أو لم يكلمه أثناء الخطابة؟ فمن يستطع أن يعرف جلية الخبر إزاء هؤلاء الأربعة الذين عاينو الأمر وشهدوه؟ ومع ذلك فهذا مجرد مثل متطرف للحال بإزاء كل حادث تاريخي، فليس في الطاقة أن نعرف كيف وقع بالدقة حادث معين، وكذلك الشأن في السياسة، فليس فيها شيء ثابت مستيقن، وذهن الكاتب السياسي أبدًا مجال لاحتمالات متضاربة، وهو أبدًا مطلوب إليه أن يوازن ويقايس بين أمور متعارضة، والفارق الهام الوحيد بين التاريخ والسياسة هو أن التاريخ

بارد والسياسة حارة، وهو لعمري فارق حيوي، فإذا كان في الإمكان تناول مسائل سياسة الماضي –كحالة أثينا على عهد بركليز مثلًا، وحال رومية على عهد أغسطس– ببرود واستقلال في الرأي، فإن دراسة التاريخ تكون قيمة جدًا من حيث هي مدرسة لتعليم طريقة البحث، فهي تعلمنا الحذر، واستقلال الرأي، وسجاجة الطبع، إنها تبعث فينا شعورًا بتعقد الظواهر الاجتماعية النفسية وتقلبها، إنها تهيئ لنا أسباب اكتساب ملكة صعبة المنال هي ملكة الاستدلال بالأفعال الظاهرة على البواعث والأفكار الباطنة.

(٢) التاريخ من حيث هو مستودع السوابق السياسية:

غير أن التاريخ أكبر من أن يكون مجرد مدرسة تعلم فيها الطريقة السياسية، إنه إلى جانب ذلك مستودع السوابق السياسية، إن المشاكل التي تواجه الجيل الحاضر قد طرحت على بساط البحث بشكل ما مرارًا كثيرة فيما مضى، نعم إن التاريخ لا يعيد نفسه، ولا يمكن أن يجعل بحيث يعيد نفسه، إلا أنه ما من حادث يحدث إلا وهو يزيد في محيط كل حادث يترتب عليه بمقدار كونه علة في حدوثه، وبذلك يكون مجرد حدوث ما مرة سدًا قويًا مانعًا من حدوثه أبد الدهر مرة أخرى، وهذا هو نفس الأمر بالنسبة إلى حياة الفرد، فما أحد بواجد نفسه مرتين في موقف واحد بالدقة، وليس في وسع إنسان أن يلحظ أن علاقاته بأقرانه تجري من حيث تتابع العلل والمعلولات على وتيرة واحدة، ولكن على الرغم من ذلك كله فكل إنسان يجد عندما يبلغ سن النضج والاكتمال أنه تهديه وتحكمه تجاربه

التي تعيها ذاكرته، ومبادئ السلوك التي يستمدها حكمه من التجارب المذكورة، وما يقال عن الفرد يقال عن الجنس الإنساني، مع ملاحظة هذا الفارق الهام: وهو أن الجنس الإنساني فاقد لما يتصف به الفرد من الشخصية والشعور الذاتي المستمر، ليس للجنس ذاكرة طبيعية، ولكيلا يفقد الثروة الضخمة المتجمعة من تجارب الماضي، وجب أن تنشأ له ذاكرة، وذاكرة الجنس الإنساني هي التاريخ، فبالتاريخ يتوافر للجنس الإنساني الشعور الذاتي، يقول درويسن: «إن التاريخ هو مبدأ (اعرف نفسك) مضافًا إلى الجنس الإنساني، هو ضميره»، وبهذا الشعور الذاتي يمكن الجنس الإنساني أن يصبح إلى حد ما مسيطرًا على مستقبله، وبدونه تستحيل عليه تلك السيطرة، وبواسطته يستطيع التحكم في مصايره، وأن يمضي قدمًا في طريق الرقي والفلاح.

ليس ممكنًا ولا ضروريًا أن نسوق في هذا المقام أمثلة يرى منها القارئ الطريقة التي بها يتلقى جيل معين تجارب الأجيال السابقة عليه، فالتاريخ كله من بعض الوجوه مجرد عرض لهذه الطريقة، ومع ذلك فلا بأس بإيراد الأمثلة الآتية: إن الملكية الانتخابية لها من النواحي النظرية ما يؤيدها، ومع ذلك فقد عدل عنها في مجال الحياة السياسية العملية بإزاء ما دلت عليه التجارب في رومية الإمبراطورية، وألمانيا في العصور الوسطى، وبولندا الحديثة، ثم إن «النظام التجاري» القديم للسياسة الاستعمارية مما يمكن أن يدافع عنه بقوة من حيث المبادئ العامة، ومع ذلك فثورة المستعمرات الأمريكية جعلت الرجوع إليها في الدولة البريطانية أمرًا لا يتصور أبدًا، وقد نجد في أحوال أخرى أن السابقة السياسية ليست بقاطعة

الدلالة كما هي في الأمثلة المذكورة، ولكنها محل اعتبار على كل حال، فمثلًا لا يمكن أن تعتبر مناقشة مزايا وعيوب الحكومة الموحدة المجلس النيابي كافية إذا كنا نتجاهل ما حدث إبان الجمهورية الإنجليزية والثورة الفرنسية، كذلك لا يعتبر أي دفاع عن «حق العمل» مقنعًا من الناحية النظرية إلا أن يخفف من فظاعة الآثار التي تترتب عليه فيقال إن ما حدث منها في باريس عام ١٨٤٨ كان راجعًا إلى ظروف عارضة، والحق أنه لا شيء أتفه أو أخطر من تناول السياسة على أنها علم نظري مستقل عن تجارب التاريخ وعبره، ولله در ديفيد هيوم حيث يقول: «إذا تأملنا قصر حياة الإنسان، ومعرفتنا المحدودة حتى بما يقع في زماننا، فلا شك أننا نشعر بأننا كنا نبقى أطفالًا في إدراكنا لو لم يقيض لنا هذا الاختراع الذي يرجع بخبرتنا إلى جميع العصور الماضية، وإلى أقدم الأمم الخالية، ويجعلها تمدنا بأسباب التقدم في الحكمة كما لو كانت تحت أنظارنا وأسماعنا، إن الرجل المطلع على التاريخ ليمكن أن يقال عنه من بعض الوجوه إنه يعيش منذ بداية العالم، وإنه دائم الاستمداد من كل مملكة يمر بها مددًا يضيفه إلى المدخر المخزون من معارفه».

التاريخ من حيث هو أساس للتقدم السياسي:

إن التاريخ يمد السياسي بأكثر من سوابق تمت تجربتها، إنه يعطيه الأصول الواقعية لمشاكل الوقت الحاضر، وإذا كان من الخطر أن نتناول المسائل السياسية من الناحية النظرية كما لو كانت لا سوابق لها على الإطلاق، فإنه لا شيء بعد ذلك أقتل من أن يظن أن تلك السوابق مما

يمكن تجاهله في كل تسوية يراد بقاؤها ودوامها، إن فشل البيور يتان الإنجليز في تحقيق نظامهم في القرن السابع عشر، وفشل الثوار الفرنسيين في استبقاء نظمهم في القرن الثامن عشر، كل ذلك يرجع إلى حد بعيد إلى إهمال الفريقين مبدأ الاستمرار التاريخي، ففي كلتا الحالين دفعت المصلحين وقدة الحماسة وقوة البدع المحدثة إلى الانسراح من قيود الماضي جملة، فجهلوا أن الدولة ذات طبيعة عضوية، وأقبلوا يجرون لها عمليات جراحية استئصالية كادت تودي بحياتها، فلا عجب إذا كان العليل قد نهض في كلتا الحالين فزعًا مرعوبًا وطرد أولئك المصلحين طردًا.

كل المشاكل الكبيرة القائمة في وقتنا الحاضر، سياسية كانت أو اجتماعية، لها تاريخ بعيد، ففي أوروبا مثلًا نجد أن مسألة قانون الفقراء الإنجليزي كما تناولها تقرير عام ١٩٠٩م هي في الواقع عبارة عن هذه المسألة: هل ترجع إنجلترا في المسألة المذكورة إلى مبادئ عام ١٨٣٤م أو عام ١٧٩٥م أو عام ١٦٠١م؟ ثم إن مسألة حق الانتخاب ترجع بنا من قوانين الإصلاح إلى أيام غدوارد الأول وسيمون ده مونتفرت؛ ثم إن المسألة الدستورية الإنجليزية هي أيضًا ترجع أصولها إلى المجامع الشعبية التي كانت للشعوب الجرمانية البدائية، والمسألة الشرقية مما يجري هذا المجرى، فهي ليست إلا وجهًا من وجوه الخصومة المطردة بين آسيا وأوربا، تلك الخصومة العريقة في القدم حتى عندما التقى الإغريق بالفرس عند مرتون؛ وتقرير سيمون في عام ١٩٣٠م قد دل على ضرورة دراسة التاريخ الهندي دراسة دقيقة وافية لكل من يحاول معالجة المسألة الحديثة، مسألة استقلال الهند الذاتي، أو لحق أن التفكير في أي مسألة أوروبية ماثلة في مقدمة

الشؤون السيارة العملية لتصدق كلمات السير جون سيلي التي سبق اقتباسها والتي تقول إن التاريخ «دراسة هامة لكل مدني، وهي الدراسة الهامة الوحيدة لرجال الحكم والتشريع».

وقد يؤيد هذه الحقيقة أن نلقي نظرة على المسائل القائمة في أمريكا اليوم، فالمناقشة الأساسية بين الحكومة التعاهدية وحكومات الولايات لا تفهم على وجهها الصحيح إلا بالرجوع إلى عهد المستعمرات القديمة أيام كانت السلطة المركزية مستقرة في بريطانيا العظمى، وكان كل من المستعمرات الثلاث عشرة مستقلًا عن سائر المستعمرات استقلالًا تامًا، كذلك المسألة الاجتماعية السياسية الخاصة بمكانة الزنوج، فهي ترجع مع الزمن إلى أيام «التجارية» إذ عادت النخاسة الرابحة على أمريكا بعمل رخيص لم تنزعج من طريقة الحصول عليه ضمائر البيوريتان، هذا ومن المسائل الأمريكية ما يبدو لأول وهلة حديثًا، ولكنه في واقع الأمر قديم؛ خذ لذلك مثلًا مسألة منع الخمور، فهي ليست إلا مظهرًا للتعارض المستمر بين الحرية والسلطان، بين الحرية الجانحة إلى ارتكاب الخطأ، وبين السلطان المعتزم حمل الناس على الصواب، وهو تعارض لعمر الحق ظهر أصلًا وتطلب حلا في نفس جنات عدن.

الفصل الثامن

اتساع نطاق التاريخ وتزايد محتوياته في العهد الحديث

التاريخ من حيث هو فرع من علم الاجتماع – العلوم الاجتماعية التي للتاريخ صلة وثيقة بها: الاقتصاد – الجغرافية – علم الإنسان – علم الآثار – خلاصة

استعملنا في الفصل السابق على سبيل التجوز لفظ «السياسيات» في مقابل لفظ «التاريخ»، وهي مقابلة تطابق تلك التي بين لفظي «الحاضر» و«الماضي»؛ غير أنه يستحسن منعًا للبس أن ننبه على أنا لم نرد من لفظ «السياسيات» معناه الضيق المحدود المقصور على الدولة وحدها، وإنما أردنا المصالح والمهام التي لها اتصال بكل شكل عام من أشكال النظام البشري، وهذا التنبيه ضروري، لأن بعض قدماء المؤرخين قد أخذوا أنفسهم كما سبق القول أخذًا عنيفًا بالتوفر على دراسة شؤون الحكومات من حروب، ودبلوماسية، وتشريع، وإدارة رسمية، وإجراءات قضائية، وربما كان تيوسيديد هو الذي سن هذه السنة السيئة بحصره كل اهتمامه في الشؤون السياسية الهيلينية، وصرفه نظره بالمرة عن أفانين النشاط الثقافي الخصب والأزمة الاقتصادية الحادة التي امتاز بها تاريخ أثينا وإسبرطة في أيامه، على أنه من المؤكد أننا نجد في القرن التاسع عشر ليو بولدفون رنكي العظيم، بما له من نفوذ علمي وبكونه قدوة يقتدى بها، قد مال بكتابة التاريخ إلى الناحية السياسية الضيقة، كما نجد في إنجلترا في العصر المذكور فريمان وسيلي مؤرخين سياسيين بأضيق معاني الكلمة.

إلا أن الحواجز التي كانت تحد من نطاق البحث التاريخي أخذت بتصرم القرن التاسع عشر تتداعى شيئًا فشيئًا، حتى لقد أصبح من القضايا المسلم بها في الوقت الحاضر أن لا شيء «يتعالى» على نظر التاريخ أو تضيق عنه رحابه، وأن كل ما يقع من الإنسان أو يقع عليه في جميع مناحي الحياة عبارة عن موضوعات داخلة في بحث المؤرخ واختصاصه، بل لقد أصبح من الثابت المحقق أنه إذا لم تكن للمؤرخين فعلًا هذه النظرة الواسعة الشاملة فإنهم لا محالة يعرضون علينًا صورًا ممسوخة مشوهة لكل عصر يحاولون تصويره، وجملة القول إن التاريخ لم يعد دراسة معزولة عما سواها، ولكنه أصبح إحدى دراسات يجمع بينها نسب واحد ويتألف من مجموعها علم عام هو علم الاجتماع – وهو علم افتتحه كمت في فرنسا بما أوتي من عبقرية قادرة على التجزئة والتحليل، كما افتتحه اسبنسر في إنجلترا بما أوتي من قدرة على الجمع والتركيب، هو علم نحت له واضعوه اسم «سوسيلوجيا» إظهارًا منهم لاحتقارهم ما درج عليه القدماء، ولعله لم يفق أحد من مدرسي التاريخ في القرن التاسع عشر كارل لمبرخت في الترويج لتصور التاريخ على أنه فرع من علم الاجتماع، وفي تقوية الحلقات التي تصل بين التاريخ وبين سائر فروع ذلك العلم، وقد انبعث من «قاعة بحثه» الشهيرة مؤرخون اجتماعيون حميون للمذهب الجديد فملأوا أرجاء العالم المتمدن، إلا أنه مما يؤسف له أنهم حملوا معهم فوق تصور لمبرخت الواسع وطرائقه البديعة بعض هناته، ولا سيما نظريته الخاطئة المتكلفة المتعلقة بـ «المرحلة الثقافية»(٢٦٧).

(٢٦٧) **"Culture–epoch" theorie** ذهب لمبرخت إلى أن تاريخ ألمانيا وتاريخ كل أمة أخرى عبارة

ليس بين الدراسات الاجتماعية التي غدا التاريخ وثيق الصلة بها ما هو أشد لزومًا للمؤرخ من علم الاقتصاد، نعم إن جميع المفكرين المسئولين قد عدلوا عن العقيدة المسرفة التي صاغها مركس وإنجلز[٢٦٨] والتي تفسر التاريخ تفسيرًا اقتصاديًا محضًا، إلا أن المؤرخين معترفون بأن العوامل الاقتصادية لعبت دورًا بارزًا في جميع عصور النشوء الاجتماعي للعالم، وبخاصة في العصور القديمة، أيام كان الإنسان مضطرًا إلى أن يكافح من أجل وجوده كفاحًا متصلًا أعداء طبيعيين مساوين له في القوة وشدة المراس، ثم إن جميع الساسة مدركون أن الشؤون الاقتصادية قد عادت فأصبحت مرة أخرى في مقدمة الصوالح الإنسانية، ولذلك كان التاريخ الاقتصادي في الآونة الحاضرة دون غيره من فروع التاريخ محل اهتمام الجمهور وعنايته.

وللتاريخ الجديد حليف ثان هو الجغرافية، ليس من بين العلوم علم كالجغرافية أصابه التحول والتطور التام، لقد احتواها علم الاجتماع هي الأخرى وبذلك اصطبغت بالصبغة الإنسانية؛ فلم تعد علمًا أرضيًا متصلًا بالجيولوجيا، ولكن علمًا من علوم الإنسان يبحث في الإنسان من حيث علاقته بالمكان، ويتصل أصلًا بالتاريخ الذي يبحث في الإنسان من حيث علاقته بالزمان، ومن ثم نمت الجغرافية التاريخية، وكان في نموها خير وفائدة

عن تعاقب مراحل ثقافية خاضعة لمؤثرات اجتماعية نفسانية، وقد قوبلت نظريته هذه بالنقد العنيف من مؤرخي الجيل الأوروبي الحديث لما تنطوي عليه من تعسف في الحكم وإهمال لأسباب جوهرية أخرى.

(٢٦٨) **Engels** (١٨٢٠ – ١٨٩٥) اشتراكي ألماني، كان صديقًا لكارل مركس وشريكًا له في تقرير المذهب الاشتراكي المنسوب إليهما.

عظيمة للعلم، نعم إن بعض كتاب الجغرافية التاريخية ألهبتهم حماسة المستكشف الناشئ فذهبوا إلى أبعد مما ينبغي حتى لقد أنشأ واحد منهم يفسر الأديان بواسطة الجو وحده زاعمًا أن «التوحيد ثمرة الحياة الصحراوية»، وغني عن البيان أن هذا سخف يعادل سخف ماركس عندما جزم بأن الإصلاح الديني كان ثمرة الرأسمالية البرجوازية، ومع ذلك فمثل هذه الدعاوى المسرفة يمكن ردها إلى مقامها المعقول بعرضها على محك الانتقاد.

وللتاريخ في الآونة الحاضرة، عدا ما ذكر، حليفان آخران هما الأنثروبولوجيا أي علم الإنسان، والأركيولوجيا[٢٦٩] أي علم الآثار، أما علم الإنسان فلم يبلغ علم من العلوم مبلغه في حمل المؤرخين على الإيمان بتلك الحقيقة العميقة الهامة القائلة بالوحدة الجوهرية للجنس الإنساني، وأما علم الآثار فإنه من ناحيته وسع توسيعًا لا يدرك مداه تصور المؤرخين لطول الزمن الذي نما فيه المجتمع الإنساني، لقد رفع الحجب عن الأحقاب المتطاولة السابقة على التاريخ (أي التي ليس لها تاريخ مدون) ثم عرضها على الأنظار على نحو يستثير العجب العجاب، لقد كنا إلى أواخر القرن التاسع عشر نجد الناس يطبعون ويصدقون تآريخ تجعل خلق الكون في عام ٤٠٠٤ ق.م وتحشر كل تاريخ العالم في مدى من الزمن يقل عن ستة آلاف سنة، فإذا بعلم الآثار يرجع وجود إنسان بيلتداون إلى ١٠٠.٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وإنسان هَيدلبرج إلى ٢٥٠.٠٠٠ عام قبل الميلاد،

(٢٦٩) لبيان أهمية هذين العلمين في دراسة التاريخ نحيل القارئ على رسالتي «مبادئ الآداب والثقافة» و«أعمال الأركيولوجيا» الواردين في هذه السلسلة.

وإنسان جاره القريب من القردة إلى ٥٠٠.٠٠٠ عام قبل الميلاد، وهو مع ذلك يشير من طرف خفي إلى أن هذه الكشوف لا يحتمل أن تكون آخر ما وفق إليه أو رفع الحجب عنه، ثم إن علم الآثار لم يقف عند حد افتتاح أقطار جديدة للعلم بإنسان العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث، ولكنه بما كشف من مخلفات المدنيات الغابرة لمصر وبابل وإقريطش وآسيا الصغرى، قد أضاف فوق ما تقدم فصولًا قيمة إلى علمنا بالتاريخ القديم.

وقد ترتب على هذه الفتوح التي فتحت على علمي الإنسان والآثار نتيجتان هامتان: إحداهما أن روجعت القصة التي يرويها الكتاب المقدس عن الخليقة وخروج الإنسان من الجنة مراجعة مقرونة بالنقد والتمحيص، وأعيد تنظيم السجلات التي تتناول أعمال بني إسرائيل الأولى بحيث أصبحت نافعة مفيدة، والنتيجة الأخرى هي العدول التام عن المحاولات القديمة التي أراد بها أصحابها – من لدن أغسطين إلى هجل – تكوين فلسفة للتاريخ، وخلاصة القول إن التاريخ لم يعد يعني بفروض سابقة تتعلق بالحكمة من خلق الدنيا وخلق الإنسان ولا بأفكار ميتافيزيقية كامنة يظهرها مرور الزمن، وإنه قد وضع نفسه على قدم المساواة مع بقية العلوم التي تحاول أن تجلو لعقل الإنسان معاني الأشياء كما هي، والسلام.

مراجع الكتاب
مرتبة ترتيبًا زمنيًا

- T. H Buckle: History of Civilisation (London. 1857 – 1866).
- J. G. Droysen: Grundriss der Historik (Jena 1885)
- C. Kingsley: The Limits of Exact Science as applied to History (Cambridge, 1860).
- J. G. Droysen: Erhebung der Geschichte zum Rang einer Wissenschaft (Leipzig, 1862).
- J. A. Froude: The Science of History (London, 1864).
- J. Caird: The Science of History (Glasgow, 1886).
- W. Stubbs: Seventeen Lectures on the Study of History (Oxford, 1886).
- R. Flint: History of the Philosophy of History (Edin-burgh, 1893).
- E, Bernheim: Lehrbuch der historischen Methode (Leipzig, 1894).
- C. V. Langlois et C. Seignobos: Inttoduction aux Etudes Historiques (Paris, 1898).
- J. B. Bury: Inaugural Lectute on History (Cambridge, 1903).
- P, Villari: Discussioni critiche e discorsi (Milan, 1905).
- F, J, Teggart: Prolegomena to History (Berkeley, 1916).
- B, Croce: Teoria e Srotia della Storiografia (Bari, 1920).
- J. H. Robinson: The New History (New York, 1927).

- M, M, Chaterji: History as a Science (London, 1927).
- H, See: Science et Philosophie de l'Histoire (Paris, 1928).
- Lucy M, Salmon: Why is History Rewritten? (New York 1929).

الفهرس